التعليم يبني الانسان المدبر وعالم الحياة

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

التعليم في ظل الدولتين العثمانية والأيوبية في الشام

ناظم رشيد

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

«لايزال الرجل عالما ما تعلم فاذا ترك التعلم وظن انه قد أستغنى واكتفى بما عنده فهو أجهل مايكون » .

(سعيد بن جبير) .

تمهيد :

ضعفت الدولة العباسية في أخريات أيامها وأصاب اوصالها الإهمال والتفكك مما أدى الى انفصال أجزاء منها، لم تبق لها علاقة بسيادة بغداد الا بالمظاهر الشكلية فقد أصبحت لها إداراتها الخاصة وشؤونها العسكرية والثقافية المستقلة . ومن كبريات هذه الدول في الديار الشامية ، دولتا الزنكيين والأيوبيين اللتان كان لهما دور كبير في دفع عجلة العلم والمعرفة الى مراحل بعيدة من الرقي والتقدم ، على الرغم من الصراع العنيف مع الغرب الصليبي والشرق التتري .

ازدهرت الحركة الفكرية في عصر الزنكيين ، ولا سيما في عهد نور الدين محمود (ت٥٦٩) وهو من أعظم ملوكهم، وكان محباً للعلم والعلماء، والأدب والأدباء ومن شغفه بالعلم كان لايفتأ يجمع العلماء في مجلسه ويستشيرهم في أمور دينه ودنياه ويحيطهم بعنايته ورعايته ويهيء لهم المناخ الملائم لعيشهم وعملهم ويعد في نظر الدارسين اول منشيء لدار الحديث في التاريخ الاسلامي(١). ومن مشاهير الفقهاء الذين وفدوا عليه قطب الدين النيسابوري (ت٥٦٨)، يقول ابو شامة المقدسي : فسر نور الدين به، وأنزله بحلب بمدرسة باب العراق وبنى له مدرسة كبيرة للشافعية لفضله (٢) .

ازدادت الحركة الفكرية نشاطاً في عصر الأيوبيين . فأن صلاح الدين بن يوسف بن أيوب (ت٥٨٩) مؤسس الدولة الأيوبية وقاهر الصليبيين في أعنف المعارك ومنقذ القدس الشريف من شرور أشرس فئة باغية كان حافظاً للقرآن، وراوياً للحديث وصاحب ذوق لطيف في رواية الشعر وحفظه .

وجمع بلاطه جمهرة من العلماء والكتاب كالقاضي الفاضل وابن شداد القاضي، وعماد الدين الكاتب ، ولم يجتمع — كما يقول ابن العديم — بباب أحد من الملوك بعد سيف الدولة بن حمدان ما اجتمع ببابه، وزاد على سيف الدولة في الحباء والفضل والعطاء (٣) » .

(١) الدارس في تاريخ المدارس ١ : ٩٩ .
(٢) الروضتين ١ : ٢١٤
(٣) زبدة الحلب في تاريخ حلب ٣ : ١٢٥ .

وقد برز عدد كبير من أبناء الأسرة الأيوبية في نظم الشعر، وتأليف الكتب وتصنيفها من جهة، وبناء المدارس ورعاية رجالها، وتأسيس المكتبات، واستصحاب العلماء والأدباء من جهة ثانية (١) فهم كما قال الشاعر (٢) :

مَن تلقَ منهم تقلْ لاقيتُ سيّدهم مثلُ النجومِ التي يَسري بها الساري

وفي بحثنا هذا سنجلي أثر الأسرتين الزنكية والأيوبية في التعليم، وما اضطلعت به من أعمال جليلة في خدمة المعرفة . ونشر العلم .

دور العلم

هبت على الديار الشامية موجات الصليبيين في نهاية القرن الخامس للهجرة، أرادت طمس معالم الحضارة الاسلامية، ولكن العرب تمسكوا بدينهم القويم، ورعوا جوامعهم رعاية طيبة ، و اتخذوها منبراً للارشاد من جهة والتثقيف من جهة أخرى ، فبنوا فيها الزوايا للتعليم والتدريس (٣) ولم تكن هناك مدرسة بالمعنى الذي نعرفه الآن الادار الحكمة في طرابلس، التي انشأها الحسن بن عمار قاضي طرابلس، وقيل: انه كان بها اذ ذاك عدة مدارس وخزائن كتب (٤) .

وقد زار ابن جبير مدينة دمشق أيام صلاح الدين ودخل جامعها الأموي ورأى الزوايا التي كان الطلاب قد اتخذوها للدرس والنسخ ، وشاهد المكان الذي كان يعتكف فيه الامام أبو حامد الغزالي ورأى ما كان يعقد فيه من حلقات الدراسة ، وماينفق على طلبتها ومدرسيها ، فما قاله : « وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرم ، فلا تخلو القراءة منه صباحاً ولامساءاً ، وفيه حلقات التدريس للطلبة وللمدرسين فيها اجراء واسع (٥) » .

ولم تنته مكانة الجوامع حينما أنشئت المدارس في عهد الدولتين الزنكية

---

(١) انظر بحثنا المنشور في آداب الرافدين بعنوان النشاط العلمي والادبي في عهد الأسرة الأيوبية العدد الثامن ، آب ، ١٩٧٧) .

(٢) شفاء القلوب في مناقب بني ايوب ص ١ (مخطوطة المتحف البريطاني رقم ٧٣١١) والبيت لشاعر يدعى العرندس (سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ص ٤٢٢) .

(٣) انظر الادب في بلاد الشام ص ١٠٩ .

(٤) خطط الشام ٦ : ٦٧ .

(٥) رحلة ابن جبير ص ٢٤٤ .

والأيوبية ، فبقيت ترعى الطلاب وتحتضنهم وتقدم لهم خير زاد في العلوم والآداب وبخاصة الدراسات الفقهية .

وكان في دمشق زهاء تسعين مدرسة منها اكثر من ثلاثين للحنفية ونحو ثلاثين للشافعية، وثمان للحنابلة، وثنتان للمالكية، وثمان للحديث، وأربع للطب (١) وقد وصف أبو الفضل بن منقذ الكناني هذه المدارس بقوله : (٢)

ومدارس لم تأتها في شكل ... الاّ وجدتَ فتى يحلّ المشكلا
ما أمّها مرءٌ يكابد حيرةً ... وخصاصةً الاّ اهتدى وتمولا
وبها وقوف لايزال مغلها ... يستنقذُ الأسرى ويغني العيّلا
وأئمة تلقي الدروسَ وسادة ... تشفي النفوسَ وداؤها قد أعضلا
ومعاشر تخذوا الصنائع مكسباً ... وأفاضل حفظوا العلومَ تجمّلا

ومما قال علي بن منصور السروجي في دمشق :

في كلّ قطرٍ بها للعلم مدرسةٌ ... وجامعٌ جامعٌ للدّينِ معمورٌ
كأنّ حيطانَها زَهْرُ الربيعِ فما ... يملهُ الطرف فهو الدهرَ منظور
يُتلى القرآنُ به في كلّ ناحيةٍ ... والعلمُ يذكرُ فيهِ والتفاسيرُ

وتنوعات المدارس آنذاك فكان منها مدارس للحديث ومدارس للنحو ومدارس للفقه ..... ولا يمنع ذلك من أن يدرس فيها الوان الثقافة الأخرى الى جانب المادة الأصلية كالطب والصيدلة والكحالة والهندسة والفلك والتاريخ والجغرافية.....

ومن كبريات المدارس التي أنشئت وقتئذ : المدرسة النورية الكبرى التي أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي سنة ٥٦٣ ومن أشهر الأساتذة الذين درسوا فيها وتولوا أمر أدارتها جمال الدين الحصيري (٣) . وفي هذه المدرسة يقول عرقلة الدمشقي (٤) :

ومدرسة سيدرس كلّ شيء ... وتبقى في حمى علمٍ ونسكِ
تضوع ذكرها شرقاً وغرباً ... بنور الدين محمود بن زنكي

(١) الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ص ٦٠
(٢) خطط الشام ٦ : ٧
(٣) خطط الشام ٦ : ٩٧
(٤) ديوان عرقلة ص ٧٠ .

يقول وقولُه حق وصدق بغير كناية وبغيرِ شك

دمشق في المدارسِ بيت مُلكي وهذى في المدارس بيت مِلكي

والمدرسة العزيزية التي أسسها الملك الأفضل علي بن صلاح الدين ثم أتمها أخوه العزيز عثمان ، ووقف عليها ،ونقل اليها والده الكبير في قبة بجوارها ، ومن أشهر مدرسيها عبد اللطيف البغدادي وسيف الدين الآمدي شيخ المتكلمين في وقته (١) .والمدرسة الصلاحية التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي ومن أعيان مدرسيها ابن الحاجب النحوى المشهور ، والمدرسة الأشرفية التي بناها الملك الأشرف موسى بن أبي بكر سنة ٦٣٠ ومن أشهر رجالها تقي الدين بن الصلاح وأبو شامة المقدسي صاحب كتاب الروضتين ،وقد ذكر النعيمى في كتابه « الدارس في تاريخ المدارس » العشرات من هذه المدارس وأسماء منشئيها والعلماء الذين دَرَّسوا فيها ولم يكن حظ النساء بأقل من حظ الرجال في إنشاء لمدارس والوقوف عليها ، وأذكر هنا بعضهن على سبيل المثال لا الحصر : عصمه الدين خاتون بنت معين الدين أنر زوجة نورالدين أنشأت المدرسة الخاتونية الجوانية للحنفية ، ووقفت عليها أوقافاً كبيرة (٢) .

وساهمت أختا صلاح الدين في تشييد المدارس فبنت اخته ست الشام زمرد خاتون مدرستين للشافعية بدمشق (٣) وبنت أخته الثانية ربيعة خاتون مدرسة الصاحبة بدمشق للحنابلة ودفنت في فنائها (٤) واقتدت بهما بنات أخيهما الملك العادل أبي بكر ، فهذه مؤنسة خاتون قد بنت المدرسة العادلية الصغرى بدمشق للشافعية (٥). وضيفة خاتون بنت مدرسة الفردوس في حلب ورتبت فيها خلقاً من القراء والفقهاء وكتبت على حائط فنائها بعد البسملة آيات من سورة الزخرف (٦) أنشأت عذراء خاتون بنت نور الدولة أخي صلاح الدين ، المدرسة العذراوية

(١) عيون الأنباء ٢ : ٢٠٧ .
(٢) النجوم الزاهرة ٦ : ٩٩ الروضتين ١ : ٦٣ ، ٢ ، ٢ : ٦٦
(٣) ذيل الروضتين ص ١١٩ .
(٤) مختصر ابي الفداء ٣ : ١٧٤ .
(٥) خطط الشام ٦ : ٨٦
(٦) خطط الشام ٦ : ١٠٧

بدمشق للحنفية والشافعية (١) وبنت مؤنسة خاتون بنت المظفر صاحب حماة مدرسة وقفت عليها وقفاً جليلا وكتباً (٢).

ولم يقتصر بناء المدارس والعناية بها على الاسرة الزنكية والأيوبية ، وانما تجاوزه إلى العلماء والفقهاء من جهة ، والامراء والاغنياء المحبين للعلم والمعرفة من جهة أخرى فمثلاً : الشريفية التي أنشأها عبد الوهاب بن عبد الواحد بن محمد الأنصارى الفقيه الواعظ وشيخ الحنابلة المتوفي سنة ٥٣٦. والضيائية أنشأها ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي سنة ٦٢٠. والبادرئية التي أنشأها الطبيب عبد الرحيم بن علي المعروف بالدخوار المتوفي سنة ٦٢٨ . والزجاجية التي أنشأها في حلب بدر الدولة سليمان بن أرتق سنة ٥١٥ .

مراحل التعليم

كان التعلم في ظل الدولتين الزنكية والصلاحية قائماً على مراحل ثلاث :

المرحلة الاولى : يتعلم فيها الناشئة الحروف الأبجدية ومبادىء الخط وقراءة القرآن ، وحفظ السور القصيرة منه ، ومبادىء النحو والصرف والحساب ، وحفظ الشعر ،ماعدا شعر ابن حجاج وصريع الدلاء ومن نظم على غرارها لئلا تفسد الاخلاق وتبعد الناشئة عن جادة الصواب (٣). ويقضي الناشئة في هذه المرحلة بعد السابعة من العمر ما يقرب من ثلاث أو أربع سنوات (٤).

المرحلة الثانية : يدرس فيها التلاميذ تفسير القرآن والحديث وعلومه ، والديانات والفلسفة وأصول اللغة وفقهها ، والشعر ، وعلم القراءات والفقه ومذاهبه والتاريخ ، وعلم البلدان (الجغرافية) (٥) .

المرحلة الثالثة : وتقوم مقام الدراسات العليا في الوقت الحاضر ،يتعمق فيها

---

(١) خطط الشام ٦ : ٨٦

(٢) مختصر ابي الفداء ٣ : ١٤٤ ، خطط الشام ١ : ١٤٦ .

(٣) انظر نهاية الرتبة ص ١٦١ .

(٤) آداب المتعلمين ص ٢١ .

(٥) انظر تاريخ العرب مطول ٣ : ٦٦٨ الأدب في العصر الأيوبي ٨٢ص آداب المتعلمين ص ٢١

الدارس في العلوم التي تلقاها في المرحلة السابقة ، وربما يتخصّص في علم واحد أو أحد فروعه (١).

فئات التعليم والتدريس :

١ ــ المعلمون أو المؤدبون :

ويجدر بهم أن يكونوا على منزلة رفيعة من الخلق والأدب والدين ، يقول أبو حامد الغزالي : يجب أن يكون المعلم عاملا بعلمه ، فلا يكذب قوله فعله ، ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين ، والظل من العود ، فكيف ينتقش الطين بما لانقش فيه ، ومتى استوى الظل والعود أعوج ولذلك قيل في المعنى :

لاتنهَ عن خلقٍ وتأتي مثلـه عارٌ عليكَ اذا فعلتَ عظيمُ (٢)

وقال ابن سينا : ينبغي أن يكون مؤدب الصبي عاقلاً ذا دين بصيرا برياضة الأخلاق ، حاذقاً بتخريج الصبيان ، وقوراً رزيناً ، غير كزٍ ولا جامد ، حلواً ، لبيباً ذا مروءة ونظافة ونزاهة (٣).

كان المعلمون يتخذون لأنفسهم دوراً خاصة لتعليم الصغار ، ولا يجوز لهم العمل في المساجد لأنّ الصبيان « يُسوّدون حيطانها ، وينجّسون أرضها ، ويمشون على البول وسائر النجاسات » (٤) ويعلم المؤدب الصبيان ــ بالاضافة إلى مبادىء القراءة والكتابة ــ الفضائل والمحامد « ومن كان عمره سبع سنين أمره بالصلاة في الجماعة ، فأنّ النبي ــ صلى الله عليه وسلّم ــ قال : علموا أولادكم الصلاة لسبع وأضربوهم على تركها لعشر ، ويأمرهم ببر الوالدين ، والانقياد لأمرهما بالسمع والطاعة والسلام عليهما ، وتقبيل أياديهما عند الدخول عليهما ، ويضربهم على إساءة الأدب ، والفحش في الكلام ، وغير ذلك

(١) انظر آداب المتعلمين ص ٢١ .
(٢) آداب المتعلمين ص ١٠٤ .
(٣) آداب المتعلمين ص ٢٠ .
(٤) نهاية الرتبة ص ١٦١ .

من الأفعال الخارجة عن قانون الشرعية مثل : اللعب بالكعاب ، والبيض ونردشير ، وجمع أنواع القمار . ولا يضرب صغيرا بعصا غليظة تكسر العظم (١) ولا رقيقة تؤلم الجسم ، تكون وسطاً ، ويتخذ مجلداً عريض السير ويعتمد بضربة على اللوايا ، والافخاذ ، وأسافل الرجلين ، لانّ هذه المواضع لايخشى عليها مرض ولا غائلة ، ولا ينبغي للمؤدب أن يستخدم أحداً من الصبيان في حوائجه وأشغاله التي فيها عار على آبائهم ، كنقل الزبل ، وحمل الحجارة ، وغير ذلك من نقل الماء إلى بيته ، وما أشبه ذلك ، ولا يرسله إلى داره ، وهي خالية ، ولا يرسل صبياً مع إمرأة لكتب كتب ، ولا مع رجل لكتب قصة » (٢) . ويختار المعلم من كل مجموعة واحداً يسمى « العريف » ويشترط فيه العفّة ، والخلق النبيل ، وحسن التصرف ، والامانة ، والرجاحة ، والصدق . وواجبه إعادة المادة التي ألقاها المعلم على تلاميذه لكي ترسخ في أذهانهم ، ورعاية طعامهم وقت جوعهم والإشراف عليهم أثناء اللعب ، ومراقبتهم من الهرب أو التأخر عن حضور الدرس .

أما المعلمات أو المؤدبات فكنّ يسلكن السبيل نفسه في تعليم الفتيات ، وكنّ « يمنعن البنات من الفواحش ، ومن القصائد والأشعار والكلام الذى لاخير فيه ، ويمنعن من زينتهن ، وبهرجتهن يوم عيدهن في البطالة » (٣).

٢. المدرسون

ان النظام المتبع آنذاك لايقل شأناً عن نظام المدارس في الوقت الحاضر فأن لكلّ مدرسة عدداً من المدرسين ، يختص كلّ واحد منهم بتدريس مادة أو أكثر ، ويديرهم شيخ رسم السلطان بتعيينه ، ويكون عادة من أقدم المدرسين ،

---

(١) هذه الأساليب ترفضها التربية الحديثة وتمنعها ، لأنها تؤدى إلى تعقيد الطفل ، وتجعله ينفر من رحاب العلم والمعرفة .

(٢) نهاية الرتبة ص ١٦١ .

(٣) نهاية الرتبة ص١٦١ .

ومن الذين بلغوا مرتبة كبيرة من النضوج الفكري ، والقدرة العـــالية في مجال التأليف والتصنيف .

ويشترط في المدرس أن يكون متمكناً في مادته العلمية ، مستوعباً الاختصاص الموكل على تدريسه قادراً على إدارة الجماعة التي يدرسها بكل جدارة ومقدرة . يقول تاج الدين السبكي : «أما المدرس فحق عليه أن يحسن إلقاء الدروس ، وتفهيمه الى الحاضرين ، ثم إن كانوا من المبتدئين فلا يلقى عليهم مالايناسبهم من المشكلات ، بل يدربهم ، ويأخذ بالاهون فالأهون ، الى أن ينتهوا الى درجة التحقيق » (١) .

ومن واجب المدرس أن يعطي للدرس حقه شرحاً وتوضيحاً ، ولا يصح أن يدخل الدرس دون تهيئة المادة التي يريد تدريسها ، يقول تاج الدين السبكي : «ومن أقبح المنكرات مدرس يحفظ سطرين أو ثلاثاً من كتاب ، ويجلس ، يلقيها ، ثم ينهض ، فهذا إن كان لايقدر الا على هذا القدر فهو غير صالح للتدريس»(٢)

ويعد ابن جماعة — في رأيي — خير من وضع كتـــاباً في التعليم بعنوان « تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم » (٣). ومن أهم الاداب التي يجب أن يتخلق بها المدرس في نظره أن ينزه علمه عن جعله سلماً يتوصل به الى الاغراض الدنيوية ، ويتنزه من دنيء المكاسب ، ومعاملة الناس بمكارم الاخلاق ومن آدابه في درسه التطهر من الحدث والخبث . والتنظف والتطيب ولبس من أحسن ثيابه اللائقة به بين أهل زمانه ، والجلوس بارزاً بين الحاضرين .

٣ — المعيدون :

إن وظيفة المعيد المقتبسة هي واسمها من نظم الدراسة الاسلامية تؤيد أن نظم التعليم آنذاك كانت في أوج من الاتقان والرقي . وواجب المعيد إعادة وتوضيح

---

(١) معيد النعم ص ١٠٥ .

(٢) معيد النعم ص ١٠٥ .

(٣) له طبعتان الأولى في الهند سنة ١٣٥٣ هـ ، والثانية ضمن مجموعة كتب بعنوان آداب المتعلمين ورسائل اخرى في التربية الاسلامية ، تحقيق احمد عبد الغفور عطار.

ما القاه المدرس . يقول السبكي : «المعيد عليه قدر زائد على سماع الدرس ، ومن تفهيم بعض الطلبة ، ونفعهم ، وعمل مايقتضيه لفظ الاعادة » (١) .
ويقول ابن جماعة : «اذا كان للمدرس معيد ، فليكن من صلحاء الفضلاء ، صبوراً على أخلاق الطلبة حريصاً على فائدتهم وانتفاعهم به قائماً على وظيفة اشغالهم .... ويعيد لهم ماتوقف فهمه من دروس المدرس ، ولهذا يسمى معيداً» .(٢)
ان الهيئات التدريسية المنتظمة دليل على رقي حركة التعليم آنذاك ومؤشر واضح على النشاط والحيوية في عملية التثقيف والتنوير الفكري وبيان للتقدم الحضاري في ديار الشام .

طريقة التعليم :

لم تكن هناك الوسائل التي نعهدها في قاعة الدرس والتعليم كاللوحة والطباشير وانما كانت بواسطة التلقين والكتابة في الصحف (٣) . وقد لاحظ ابن جبير طريقة تعليم الصبيان المبتدئين حينما زار مدينة دمشق ووجدها تختلف في المشرق عنها في المغرب .

وكان المدرس عادة يجلس في غرفة الدرس على كرسي أو مكان مرتفع وسط حلقة من الطلاب يلتفون حوله ، فيلقي درسه شفاها ، أو من كتاب بين يديه ، وقد يكون الكتاب من وضعه ، او من وضع غيره ، ويناقش طلبته في موضوع الكتاب ويقف عندما يستشكل ، فيشرحه ، أو قد يعرض لمسألة من مسائل الفقه أو الحديث او اللغة أو الادب ..... فيشرحها ويأتي عليها بالشواهد من محفوظه ، أو مما يعرفه ويأتي به من الكتب (٤) .والمدرس الناجح في نظر ابن جماعة : أن لايطيل الدرس حتى يمل ، ولا يقصره حتى يخل ، ويراعي مصلحة الحاضرين ، ويلون صوته للحاجة ، وأذا فرغ من مسألة سكت قليلا ويضبط نظام الدرس ،

(١) معيد النعم ص ١٠٨ وانظر صبح الاعشى ٥ : ٤١٤ وطبقات الشافعية للسبكي ٤ : ٢٤٣ ، والطالع السعيد ص ٨٨ .
(٢) آداب المتعلمين ص ٢٤٤ .
(٣) آداب المتعلمين ص ١٥١ .
(٤) الأدب في العصر الايوبي ص ٨٣ .

ويصغي للسؤال ، ويجيب بما عنده ، ويراعي مصلحة الجماعة في تقديم الدرس أو تأخيره ، ويذكر قبل نهاية الدرس ما يشعر بذلك ، ويمكث قليلا بعد قيام الجماعة (١). ويحضر الطلاب الدروس في أوقات معينة مخصصة لكل مادة ، وبحسب الأقسام التي وكلّ على كلّ واحد منها أستاذ مختص ، فكان هناك ، أستاذ للتفسير ، وأستاذ للفقه ، واستاذ للغة والادب ، واستاذ للنحو ، وأستاذ للفلسفة والمنطق .... كما كان يقسم الفقه الى مذاهبه المختلفة ، ويكون لكلّ مذهب أستاذه ، فأستاذ للمالكية ، وأستاذ للحنفية ، وأستاذ للشافعية ، وآخر للحنابلة الا بعض المدارس فكانت تقتصر على مذهب واحد كالشافعي مثلا (٢).

وكان المدرسون يتشددّون في التدريس في بعض الأحيان ، وقد ذكر الأدفوي ذلك في معرض قصيدة ظريفة نذكرها كما أوردنا ابن حجر في درره (٣):

ومباحثٌ لاتنتهي لنهايةٍ ... جَدَلاً ونقل ظاهرِ الأغلاطِ
ومدرس يُبدي مباحث كلها ... نشأتْ عن التخليط والأخلاط
ومحدث قد صار غايةُ علمه ... أجزاءَ يرويها عن الدّمياطي
وفلانة تروي حديثاً عالياً ... وفلان يروي ذاك عن أسباط
والفرق بين عزيزهم وعزيزهمْ ... وافصِحْ عن الخيّاط والحناطِ (٤)
وأبو فلان ماسمه ؟ ومن الذي ... بين الأنام ملقب بسناطِ ؟
والفاضل النحرير فيهم دأبه ... قول أرسطاليس أو بقراطِ
وعلومُ دينِ الله نادتْ جهرةً ... هذا زمانٌ فيه طيّ بساطِ

الاجازة :

يتدرج الطالب في مراحل التعليم ، ولا يرتقي إلى مرتبة أعلى الا بعد أن يجتاز امتحاناً خاصاً بجدارة أو كما يقول السبكي : اذا أمكنه أن يعترض على

---

(١) انظر آداب المتعلمين ١٨٥ — ١٩٤ .
(٢) الأدب في العصر الأيوبي ص ٣١
(٣) الدرر الكامنة ٢ : ٧٢ وانظر كتاب « ابن نباتة المصرى» ص ٨٤ .
(٤) هناك محدثان عرفا باسم«عزيز » عزيز بن احمد الأصفهاني وحفيده عزيز بن الربيع بن عزيز .

أستاذه ، ويصير إلى حالة يمكنه فيها أن يقول : لم ؟ ويحسن الاعتراض عليه .(١)

وكان المدرسون يتشدّدون في منحها «حتى أن بعض العلماء لم يكن يجيز أحداً الااذا استخبره وسأله : مالفظ الإجازة ؟ وما تعريفها ؟ وحقيقتها ومعناها ؟ » . (٢)

وقد تنوعت هذه الإجازات ، فمنها : بالفتيا ، والتدريس ، والرواية ، وعراضات الكتب وغيرها . وغالباً مايثني الأستاذ على تلميذه في الإجازة ، ويذكر اسمه ومذهبه ، واسم الطالب ، وتاريخ الإجازة فهذا مجد الدين علي القشيري يجيز محمد بن علي القوصي بالتدريس ، ويكتب في اجازته : الفقيه العالم عماد الدين محمد ، بدأ بالقرآن العظيم ، فأحكم القراءات السبع ، ثم ثنى بالاشغال بمذهب الإمام الشافعي درساً وتكراراً ، فختم على المهذب أو أكثره ، ثم اشتغل عليّ بعلم التفسير ، تفسير القرآن العظيم ، واحتوى على حظ جسيم ، ثم أقبل على قراءة علم الرقائق ، بصوت شج وقلب صادق ، في مسجد الجامع ، ومشهد الجوامع ، وصحبني مدةً مديدة ، سنين عديدة تزيد على العشرة ، ثم كتب اذنه له بالتدريس ، وختمه بخطه . وفيها شهادة الشيخين الفقيهين العالمين : بهاء الدين هبة الله القفطي ، وجلال الدين أحمد الدشناوي ، شهدا على شيخهما وأثنى كل منهما على المجاز المذكور . وأرخ الشيخ بهاء الدين في رسم شهادته بالنصف من شعبان سنة ٦٥٠هـ (٣) .

وقد تكون الإجازة شعراً ، ومن ذلك ماكتبه أبو شجاع عمر بن أبي الحسن البسطامي (ت ٥٧٠) جواباً على الحافظ السلفي ، وقد طلب منه الإجازة ، فقال (٤) :

إني أجزتُ لكم عني روايتكم ... بما سمعت من أشياخي وأقراني

من بعد أن تحفظوا شرط الجواز لها مستجمعين لها أسباب إتقان

أرجو بذلك أن الله يذكرني ... يوم النشور وإياكم بغفران

---

(١) طبقات الشافعية ٤ : ٢٥٨ .

(٢) استجارة الحافظ السلفي الشيخ الزمخشري ، للدكتورة بهيجة الحسني . مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الثالث والعشرون ١٩٧٣ ، ص ١٦١ .

(٣) المطالع السعيد ٣٠٩ .

(٤) توضيح الأفكار ٢ : ٣٢٤

وكانت لهذه الإجازات أهمية كبيرة عند الدارسين ، لذلك عنوا بتدوينها وتوضيحها والتعليق عليها ، وهي بحد ذاتها مؤشر كبير للتقدم الحضاري عند العرب خاصة والمسلمين عامة . تقول الدكتورة بهيجة الحسني : «لقد تفنن العلماء في أساليب الإجازة والاستجازة لذا فهي ذات قيمة حضارية كبيرة ، اذ بواسطتها يمكن الوقوف على مبلغ رقي الحركة الأدبية والثقافية والعلمية حينذاك ، حيث تختلف إجازة عن إجازة ، واستجازة عن استجازة في الأسلوب والمضمون ، كما أن فيها فوائد لغوية ، فهي بمثابة معجم لكثير من المصطلحات الفنية التي استعملت قديماً ، كما تمدنا بمعلومات وافية عن أصول الشيوخ العلماء وطلاب العلم والتعليم ، وتطلعنا على كثير من الأنظمة التي كانت متّبعة في البلاد الإسلامية ، فهي وثائق صادقة لطلاب الدراسات الادبية والاجتماعية والثقافية (١) » .

ومن الإجازات التي شاعت وعرفها أبناء العصر الزنكي والأيوبي ، عِراضات الكتب . يحفظ الطالب فيها كتاباً معيناً ، كأن يكون في الفقه أو الحديث أو الأدب أو النحو .....

ثم يعرضه على أستاذه ، فيجري له اختباراً في مادة الكتاب ، فاذا أحسن الإجابة ولم يتلكأ في معرفة دقائق الكتاب أجازه ، وقال فيها : «عرض عليّ ....» أو «عرض علي وكتبه فلان .... (٢) » وتتوقف قيمة الإجازة على منزلة الأستاذ ومكانته ، وشهرته في الأوساط الأدبية والعلمية ....

وقد شاركت المرأة أخاها الرجل في التعلم والتعليم ، فكان لها نصيب كبير في مجال الإجازة والاستجازة ، فهذا قاضي القضاة ابن خلكان يستجيز زينب بنت عبد الرحمن بن الحسن الشعري فتجيزه ، يقول : ولي منها إجازة كتبتها في بعض شهور سنة عشر وستمائة (٣) .

---

(١) استجارة الحافظ السلفي الشيخ الزمخشري ص ١٦٢ .

(٢) انظر صبح الاعشى ١٤ : ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(٣) وفيات الأعيان ٢ : ٣٤٤

الأجور والرواتب :

كان لأهل العلم عند نور الدين محمود منزلة سامية يحسن اليهم، ويمنع عنهم الأذى . تحدث ابن واصل ، فذكر أنهم كانوا عنده في محل عظيم ، وأنه كان يجمعهم للبحث والنظر ، واستقدمهم اليه من البلاد الشاسعة كما كفاهم مؤونة عيشهم فأجرى عليهم الجرايات والإدرارات الكثيرة والصلات العظيمة (١) .

وكان العلماء والمدرسون في عهد صلاح الدين الأيوبي وأبنائه من بعده في نعمة ورفاه . ذكر قاضي عسكره بهاء الدين بن شداد أنه «كان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار (٢) » . ويوضح ماكان ينفقه عليهم من الأموال ماجاء في كتاب بعث به اليه القاضي الفاضل ، يقول فيه : «وما يجب أن يعلم المولى أن أرزاق أرباب العمائم في دولته اقطاعاً وراتباً يتجاوز مائتي ألف دينار بشهادة الله ، وربما كانت ثلاثمائة (٣) » .

وكانت رواتب المدرسين والمعيدين عالية ، ولائقة بمنزلتهم ومكانتهم . يقول ابن دقماق خلال حديثه عن المدرسة الظيبرسية : «وشرط لكل مدرس ستين درهماً ، ولمعيد الشافعية في كل شهر أربعين درهماً ، ولمعيد المالكية في الشهر أربعين درهماً » (٤) .

وأكبر مرتب عرف لمدرس آنذاك ، هو الراتب الذي فرضه العزيز عثمان للحسن بن الخطير ، فقد قرّر له في الشهر ستين درهماً ، ومائة رطل خبز ، وخروفاً ، وشمعة في كل يوم » . (٥)

وكان بعض المدرسين الأغنياء لايتقاضون أجراً لقاء تدريسهم ، بل ينفقون على أنفسهم وأسرهم من ما يأتيهم من موارد أملاكهم وزروعهم (٦) ...

(١) مفرج الكروب ١ : ٢٨٧ .
(٢) النوادر السلطانية ص ٣١ وانظر الدارس في تاريخ المدارس ١ : ٦٠٦ .
(٣) خطط الشام ٤ : ٣٩ .
(٤) الانتصار . القسم الاول ، ص ٩٦ .
(٥) بغية الوعاة ١ : ٥٠٢ .
(٦) طبقات الشافعية ٤ : ١٨ .

وكان باني المدرسة يقف عليها الأوقاف مايكفي للإنفاق على طلابها ومدرسيها ومستخدميها والمشرف على شؤون المكتبة والإمام والمؤذن والخدم والقيم على المدرسة وهو اشبه مايكون برئيس الخدم .

وكانت دراسة الطلاب في المدارس مجاناً ، يهيأ لهم فراغ البال من ناحية المعاش كما يقول ابن جبير (١) ومن ناحية السكن ، حيث يجدون بجوار مدارسهم بيوتاً أو غرفاً يأوون اليها ، وكان عدد هؤلاء الطلاب محدوداً في كثير من الأحيان ، ويدعون بالفقهاء ، فيقال مثلاً : فقهاء المدرسة الصلاحية ، أو فقهاء المدرسة العادلية ..... وينقسمون بحسب قدمهم في الدراسة ، فمنهم الفقيه المفيد «وعليه أن يعتمد مايحصل فيه بالدرس فائدة من بحث على بحث الجماعة » .(٢) ومنهم الفقيه المنتهي ، «وعليه من البحث والمناظرة فوق ماعلى دونه » . (٣) أما بقية الطلاب فهم الجماعة العامة ، ويختلفون بحسب تقادم عهدهم في الدراسة والاختصاص .

وكانت للطلاب الأيتام رعاية خاصة ، يقول ابن جبير : «وللأيتـــام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد ، لهـــــا وقف ، يأخـــذ المعلم لهم مايقوم به ، وينفق منه على الصبيان مايقوم بهم وبكسوتهم وهذا أيضاً من أغرب مايحدث به من مفاخر البلاد » (٤) .

ويبدو أن مرتبات المدرسين في بعض المدارس في أواخر الدولة الأيوبية وبعد سقوطها قد قلّت ، ولم تكن بالمستوى اللائق بمنزلتهم ، مما دفعهم إلى هجر التدريس منهم أبو شامة المقدسي الذي اتجه إلى الزراعة واتخذها حرفة بدلاً من التدريس ، وحينما عوتب على ذلك ردّهم بقصيدة طويلة تجاوزت مائة بيت ، قال في أولها (٥) :

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٤٤ .
(٢) معيد النعم ص ١٠٨ .
(٣) معيد النعم ص ١٠ .
(٤) رحلة ابن جبير ص ٢٤٥ .
(٥) ذيل الروضتين ص ٢٢٢ .

أيها العاذل الذي إن تحرى ... قال خيراً وذل بالنصح أجرا
لاتلمني على الفلاحة ، واعلم ... أنها من أجل كسب وأثرى
أتخذ حرفة تعيش بها يا ... طالب العلم إن للعلم ذكرا
لاتهنه بالاتكال على الوقـ ... ـف فيمضي الزمان ذلا وعسرا

ومنـــها :

إنما كانت المدارس عوناً ... لأولي العلم حسب في الناس طرا
درست في زماننا ، اذا تولا ... هاأولو الجهل والحماقة قهرا
صدقات الوقوف ينفر منها ... كل حر تأتيه صفواً ويسرا

الخاتمـــة

ألقينا في الصفحات السابقة الضوء على طرق التعليم في عصر الدولتين الزنكية والأيوبية ، ووقفنا على مدى عناية الحكام آنذاك بانشاء المدارس واشاعة الثقافة بين عامة الناس ، وتوفير مستلزمات الدراسة لطلاب العلم والمعرفة ، وتعرفنا على العلوم والآداب التي كانت تدرس في ذلك الوقت ، والاجازات التي كانت تمنح للخريجين والاجور التي تعطى للعاملين في المؤسسات التعليمية .

وقد كان لذلك كله آثار ونتائج كبيرة في علوم اللغة العربية والعلوم الاجتماعية والتاريخية وغيرها مما كان موضع عناية الباحثين والمعنيين بالدراسات الادبية والتاريخية ، حتى قال أحدهم: «ولا نعرف في تاريخ الحضارة الاسلامية عصر خصب ثقافي ، ونضج فكري ، وغزارة في التأليف والتصنيف كمثل مانشاهده في هـــذا العصـــر » (١)

(١) الادب في بلاد الشام ص ١٢٩ .

المصادر والمراجع

١. آداب المتعلمين ورسائل أخرى في التربية الاسلامية : اخوان الصفا ، الغزالي ، نصير الدين الطوسي ، ابن جماعة ، ابن خلدون ، ابن حجر الهيثمي . تحقيق أحمد عبد الغفور عطار بيروت ١٩٦٧ .

٢. الأدب في بلاد الشام: د. عمر موسى باشا. المكتبة العباسية — دمشق ١٩٧٢

٣. الأدب في العصر الأيوبي : د . محمد زغلول سلام . مطبعة دار المعارف القاهرة ١٩٦٨ .

٤. استجازة الحافظ السلفي الشيخ الزمخشري : د . بهيجة الحسني . مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الثالث والعشرون ١٩٧٣ .

٥. الانتصار لواسطة عقد الأمصار : ابن دقماق . المطبعة الكبرى ببولاق ١٨٩٣ هـ .

٦. تاريخ العرب (مطول) : د . فيليب حتي ، د . أدور جرجي ، د . جبرائيل جبور دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع — بيروت ١٩٥١ .

٧. تراجم رجال القرنين السادس والسابع : أبو شامة المقدسي . نشر العطار القاهرة ١٩٤٧ .

٨. توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار : الصنعاني الحسني . مطبعة السعادة القاهرة ١٣٦٦ هـ .

٩. حسن المحاضرة : جلال الدين السيوطي . مطبعة عيسى البابي الحلبي — القاهرة ١٩٦٨ .

١٠. الحياة العقلية : د أحمد أحمد بدوي . دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة ١٩٧٢ .

١١. خطط الشام : محمد كرد علي . مطبعة الترقي — دمشق ١٩٢٧ .

١٢. الدارس في تاريخ المدارس : عبد القادر بن محمد النعيمي . تحقيق جعفر الحسني مطبعة الترقي — دمشق ١٩٤٨ .

١٣. الدرر الكامنة في أخبار المئة الثامنة : ابن حجر العسقلاني. مطبعة المدني القاهرة ١٩٦٦ .

١٤. ديوان عرقلة الكلبي : حسان بن نمير تحقيق أحمد الجندي . مطبعة دار الحياة دمشق ١٩٧٠ .

١٥. رحلة ابن جبير : ابن جبير الكناني . مطبعة دار صادر – بيروت ١٩٦٤.

١٦. زبدة الحلب من تاريخ حلب : ابن العديم ، تحقيق سامي الدهان . المطبعة الكاثوليكية – بيروت ١٩٦٨ .

١٧. الطالع السعيد : الأدفوي . المطبعة الجمالية – القاهرة ١٩١٤ .

١٨. طبقات الشافعية : السبكي ، المطبعة الحسينية – القاهرة ١٩٢٤ .

١٩. عيون الأنباء في طبقات الأطباء : ابن ابي أصيبعة . المطبعة الوهبية – القاهرة ١٨٩٢ هـ .

٢٠. المختصر في أخبار البشر : أبو الفداء ، المطبعة الحسينية – القاهرة ١٣٢٥هـ.

٢١. معيد النعم ومبيد النقم : السبكي . مطبعة دار الكتاب العربي – القاهرة ١٩٤٨ .

٢٢. مفرج الكروب في أخبار بني ايوب : ابن واصل تحقيق . د جمال الدين الشيال . مطبعة فؤاد الأول – القاهرة ١٩٥٣ .

٢٣. النجوم الزاهرة : ابن تغرى بردى . مطبعة دار الكتب المصرية . القاهرة ١٩٣٦ .

٢٤. نهاية الرتبة في طلبة الحسبة : ابن بسام المحتسب . تحقيق د . حسام الدين السامرائي . مطبعة المعارف – بغداد ١٩٦٨ .

٢٥. النوادر السلطانية : بهاء الدين ابن شداد . تحقيق د . جمال الدين الشيال . مطبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة – القاهرة ١٩٦٤ .

٢٦. وفيات الأعيان : ابن خلكان . تحقيق د. احسان عباس .مطبعة دار صادر – بيروت ١٩٧٢ .

ارادة التغيير الاجتماعي بحسب بعض نظريات الدراسة الاسلامي

ابن الجوزي
ونظراته في التربية والتعليم

جليل رشيد فالح

م/١٩/أ

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

اولاً : تمهيد في نشأته ونزعته العلمية

لابد لنا بادئ ذي بدء أن نلم بجوانب شخصية ابن الجوزي — وإن كانت المصادر لاتقفنا على الوافر الكثير من هذه الجوانب — بغية التعرف إلى الدوافع التي حفزت الرجل إلى أن يسلك إلى العلم سبيلاً ثم يعرف في ميادينه المتعددة علماً باذخاً ، تكون مؤلفاته نجعة الدارسين وبغية رواد العلم .

وقد قدر منذ لي زمن غير قريب أن أقف على شذرات من وصايا ابن الجوزي في تربية الأولاد وتعليمهم من خلال مؤلفه «لفتة الكبد إلى نصيحة الولد » مما حفزني إلى الإلمام بكتبه الأخرى ليكون ذلك فيما بعد مادة لبحث يعرّف بابن الجوزي علماً من اعلام التربية والتعليم لم أجد فيمن صنفوا في التعريف بأعلام العرب والمسلمين في هذا الميدان من نوه به أو أشار اليه ولو بلمحة خاطفة :

هو ابو الفرج عبد الرحمن بن ابي الحسن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله ابن عبد الله بن حمادى بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي ، وينتهي نسبه إلى سيدنا ابي بكر الصديق (رض) (١) :

أجمعت المصادر التي تحدثت عنه على فضله وعلو كعبه في المجالات العلمية وفي وفرة تآليفه وجهوده في التعليم والوعظ منذ وقت مبكر من حياته .

قال عنه سبطه سبط ابن الجوزي

«توفي ابوه وله ثلاث سنين . وكانت له عمة صالحة ، وكان اهلها تجاراً في النحاس .... فلما ترعرع حملته عمته الى مسجد ابي الفضل بن ناصر فاعتني به وأسمعه الحديث وقرأ القرآن .... وسمعته يقول على المنبر في آخره : كتبت باصبعي هاتين ألفي مجلـــدة » (٢) وقال عنه ابن خلكان : « كان علامة عصره وامام وقته في الحديث وصناعة الوعظ» (٣) .

وقال ابن تغري بردي : «وفضل الشيخ جمال الدين وحفظه وغزير علمه

(١) وفيات الأعيان ٣/١٤٠ ، العبر في خبر من غبر ٤/٢٩٧ — ٢٩٨.
(٢) مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ٨/٤٨١ ، ٤٨٢ .
(٣) وفيات الأعيان ٣/١٤٠ .

أشهر من أن يذكر هنا » (١) .

وقال عنه الحافظ الذهبي : «كان ابن الجوزي .... لايضيع من زمانه شيئاً يكتب في اليوم أربعة كراريس، وله في كل علم مشاركة، ولكنه كان في التفسير من الأعيان، وفي الحديث من الحفاظ، وفي التأريخ من المتوسعين ولديه فقه كاف »(٢) .

وقال عنه ايضاً : «ووعظ من صغره وفاق فيه الأقران، ونظم الشعر وكتب بخطه مالا يوصف ، ورأى من القبول والاحترام مالا مزيد عليه، وحكي غير مرة ان مجلسه حزر بمئة الف، وحضر مجلسه الخليفة المستضيء ، مرات من وراء الستر » (٣) .

وقال اليافعي عنه : «كان علامة عصره وإمام وقته في أنواع العلوم .... وكتب بخطه شيئاً كثيراً والناس يغالون في ذلك ، وقال ابن خلكان : حتى تقالوا إن الكراريس التي كتبها جمعت وحسبت مدة عمره ، وقسمت الكراريس على المدة فكان ماخص كل يوم تسع كراريس، قال : وهذا شيء عظيم لايقبله العقل»(٤)

وقال عنه ابن الساعي : «روى الحديث عن خلق كثير ، وسمع الناس منه العفل »(٤) وانتفعوا به ، وكتب بخطه مالا يدخل تحت حصر ، وخرج التخاريج وجمع شيوخه وأفرد المسانيد ، وبين الأحاديث الواهية والضعيفة ، وكان مليح العبارة حلو المنطق حسن الاشارة لطيف الذهن سريع الجواب .... ورشاقة عبارته وملح استعارته وسرعة أجوبته مما لا يدخل تحت حصر » (٥) .

وقال عنه ابن كثير : «أحد أفراد العلماء ، برز في علوم كثيرة ، وانفرد بها عن غيره . وجمع المصنفات الكبار والصغار نحواً من ثلاثمئة مصنف ، وكتب بيده نحواً من مئتي مجلدة ، وتفرد بفن الوعظ الذي لم يسبق اليه ، ولا يلحق شأوه فيه وفي طريقته وشكله وفي فصاحته وبلاغته وعذوبته وحلاوة

(١) النجوم الزاهرة ١٧٤/٦
(٢) تذكرة الحفاظ – مجلد ٢ ، ج ٤/ ١٣٤٦ – ١٣٤٧
(٣) العبر في خبر من غبر مجلد ١٠ ، ، ج ٢٩٧/٤ – ٢٩٨ .
(٤) مرآة الجنان وعبرة اليقظان ٤٨٩/٣ .
(٥) الجامع المختصر ٦٦/٩ – ٦٧ .

ترصيعه ونفوذ وعظه ، وغوصه على المعاني البديعة ، وتقريبه الاشياء الغريبة فيما يشاهد من الأمور الحسية ، بعبارة وجيزة سريعة الفهم والادراك بحيث يجمع المعاني الكثيرة في الكلمة اليسيرة ، هذا وله في العلوم كلها اليد الطولى ، والمشاركات في سائر انواعها » (١) .

ولعل القارئ حين يقف على هذه الشذرات الوجيزة من سيرة الرجل فانه يسعه أن يعرف إلى أي مدى بلغت به الهمة في طلب العلم وبذل الجهد منذ أن أبصرت عيناه الحياة ، وقد هيأت له العناية الربانية من عمته البارة عوناً وسنداً يوجهه الوجهة السليمة ، ويوفر له من أسباب تلقي العلم مايضمن له الاستمرار بشغف ولهفة ،حتى لفت الأنظار إليه اكباراً لشأنه وتعظيماً لمقامه واتخاذه مثلاً وقدوة . وعلى وجازة هذه المعلومات التي تحدثت عنه فان بوسع القارئ أن يقف عند أمور مهمة نوجزها فيما يأتي :

١ — ان توفير الظروف الملائمة للتعلم قد حبب إلى نفسه العلم والشغف الشديد بأماكن التعلم والتعلق بالكتب ، وجعل ذلك غاية تتضاءل دونه غايات النفس المتشبثة بالأعراض الزائلة من مال وجاه وولد .

وقد تحدث ابن الجوزي في بعض مؤلفاته عن نزعة التشبث الشديد بالعلم ومتطلباته ، وعزوفه عما سواه ، وسنورد طرفاً من ذلك عند الحديث عن آرائه ونظراته .

٢ — عرف ابن الجوزي قيمة الوقت ، فانصرف عن اللهو والعبث ، وكان كل وقته مستثمراً في تعلم الجديد والاستزادة من المعلومات ، حتى اصبحت له في كل علم مشاركة ، كما ذهب إلى ذلك الحافظ الذهبي .

٣ — إن العلم يبوئ الانسان مكانة عالية في المجتمع ، محوطة بالتكريم والاكبار ، من غير أن يكون للسن أثر في ذلك ، حتى انه تولى مهمة الوعظ في سن مبكرة ، وفاق أقرانه في هذا المضمار ، وحسبنا أن نعلم أن الرجل الخالي الوفاض لايسعه ان يعتلي منابر الوعظ ، ويكون لوعظه أثره البالغ

(١) البداية والنهاية ١٣/٢٨ .

في النفوس، ولولا تمكنه في العلم وتشعب معارفه لما نال تلك المنزلة .

٤ ــ اشار المؤرخون إلى اهمية تسجيل العلم وتقييده، ليكون نفعة أعم، ولم يكن ابن الجوزي فاتر الهمة في ذلك ، ولم يكن شك ابن خلكان مقبولاً حين استكثر مادون ابن الجوزي ، اذ قال في ذلك : وهذا شيء عظيم لايقبله العقل .

وأحسب ان مقولة ابن خلكان تدل على عظم شأن الرجل وكبر همته حتى قام بعمل جليل قلما يأتي بمثله الآخرون، وقد مرّ بنا ان سبط ابن الجوزي قد سمع جده يقول على المنبر: كتبت باصبعي هاتين ألفي مجلدة .

هذا بعض مايمكن لقاريء سيرته الوجيزة أن يقف عنده، متأملاً مدى عمق هذه النزعة التي أخذت عليه أقطار نفسه الطموح، وجعلت منه مثلاً نضعه نصب أعين دارسينا ــ وهم سائرون على مدرجة العلم والمعرفة ــ ليقتبسوا من بعض همته همة، ومن جهاده العلمي بعض عزم وقوة، علماً بأن ابن الجوزي ليس هو المفرد العلم في هذا الميدان بل هو واحد من اعلام بارزين تنابعوا في عصورنا العربية الاسلامية، فعرفوا بمثل ماعرف به ابن الجوزي من علو في الهمة وغزارة في العلم ووفرة في الانتاج، إلا أن يد الزمان قد عبثت بالكثير مما دونوا، فحالت بيننا وبين الوقوف عليها والانتفاع منها، ومع ذلك فأن في ما وصل الينا غُنيةً عما ضاع واندثر .

ومثل ابن الجوزي يعيش في العلم وللعلم لابدّ أن يرسم لجيله والأجيال التي تلي من بعده خطوطاً تحتذى ومفاهيم تحفز الهمم إلى الدرس والتعلم، فكان فيما دون خطوط بارزة استطاع هذا البحث ان يعرضها مجتمعة بعد أن كانت متفرقة منبثة في مواضع مختلفة من مؤلفات ابن الجوزي ، تجتمع كلها لتبوئ ابن الجوزي ــ في نهاية مطافها ــ رجلاً من رجال التربية والتعليم يقف إلى جانب الغزالي وابن مسكويه وابن خلدون وابن عبد البر والزرنوجي والعلموي واخوان الصفا ممن تحدثت عنهم مصادر التربية والتعليم بشيء

من التركيز والافاضة . (١)

ثانياً : مبادىء ونظرات عامة :

١ – العقل ودوره في التعليم

قدم ابن الجوزي الحديث عن العقل في مستهل « كتاب الأذكياء » مورداً احاديث شريفة وأقوالاً طريفة في فضيلة العقل ، بوصفه مناط العلم النافع واستيعاب مهماته وضروریاته ، وضبط شوارده ، ثم نقل ذلك العلم المستوعب إلى عالم الواقع لينتفع به القاصي والداني . ومن جملة ماورد – على سبيل المثال لا الحصر – قول رسول الله صلى الله عليه وسلم – «لاتعجبوا بأسلام امرىء حتى تعرفوا عقدة عقله» (٢) .

وعن ابي هريرة(رض) انه قال: « سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم يقول: اول شيء خلقه الله القلم ، ثم خلق النون وهي الدواة، ثم قال: اكتب – قال: وما اكتب؟ قال: اكتب مايكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، ثم خلق العقل، وقال: وعزتي لأكملنك فيمن احببت ، ولأنقصنك ممن أبغضت» (٣) .

وفي حديث لوهب بن منبه يبين لنا المخاطر التي تعرض للجاهل وان كان مؤمناً، فان الشيطان يسيرٌ عليه ان يستزله فيسرع في الانقياد اليه بخلاف المؤمن العاقل الذي يدرك بكمال عقله وعمق بصيرته مايلّم به من الأخطار اذا ما استزله الشيطان.

عن وهب قال: «اني وجدت فيما أنزل الله على أنبيائه أن الشيطان لم يكابد شيئاً أشد عليه من مؤمن عاقل، وأنه يكابد مئة رجل فيستجرهم حتى يركب رقابهم فينقادون له حيث شاء، ويكابد المؤمن العاقل فيتصعب عليه حتى لاينال منه شيئاً من حاجته» .

---

(١) ينظر على سبيل المثال : التربية عبر التاريخ للدكتور عبدالله عبد الدائم وتاريخ التربية والتعليم في الاسلام لمحمد اسعد طلس .

(٢)، (٣) كتاب الأذكياء ٨ .

وقال وهب: « لإزالة الجبل صخرة صخرة وحجراً حجراً أيسر على الشيطان من مكابدة المؤمن العاقل، لأنه اذا كان مؤمناً عاقلاً ذا بصيرة فهو أثقل على الشيطان من الجبال وأصعب من الحديد، وانه ليزاوله بكل حياته، فاذا لم يقدر أن يستزله قال: ياويله ماله ولهذا، لاطاقة لي بهذا، ويرفضه ويتحول إلى الجاهل فيستأسره ويتمكن من قيادة حتى يسلمه إلى الفضائح التي يتعجلها في عاجل الدنيا» . (١)

وفي الباب الثاني من كتابه يورد اقوالاً عن ماهية العقل ومحله، ثم يحقق في هذه المقولات تحقيقاً يجعل به ماهية العقل أمراً مرتبطاً بالعلم والتعلم وإعمال الفكر فيما خفي من أمر الصناعات ومقدار الانتفاع من التجارب وقمع الشهوات التي تخلّ بقيمة الانسان. يقول ابن الجوزي: « واعلم أن التحقيق في هذا ان يقال هنا الاسم أعني العقل ينطلق بالاشتراك على أربعة معان : احدهما الوصف الذي يفارق به الانسان البهائم، وهو الذي استعد لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وهو الذي أراده من قال غريزة، وكأنه نور يقذف في القلب يستعد به لإدراك الأشياء، والثاني ماوضع في الطباع من العلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، والثالث علوم تستفاد من التجارب تسمى عقلاً، والرابع أن منتهى قوته الغريزية إلى ان تقمع الشهوات الداعية إلى اللذة العاجلة» (٢)

يستدل ابن الجوزي على عقل العاقل وذكاء الذكي بما استوعب من علوم ، وما أوتي من معرفة ينتفع بها، ومعنى ذلك أن العقل الراجح السديد يدعو صاحبه إلى الاقبال على العلم والتزود منه، لأنه يعرف للعلم قدره، وقد روى أن الشعبي الفقيه قد طلب منه زياد بن أبيه أن يدخل عليه رجلاً عاقلاً، فجاءه برجل تبدو عليه مخايل العقل والذكاء، وبعد أن أعد له مايهيىء له الطمأنينة

---

(١) كتاب الأذكياء ٩ .

(٢) كتاب الأذكياء ١٠ — ١١

والراحة والسكينة راح يسأله. يقول الشعبي: فما سأله عن شيء إلا وجد عنده بعض مايريد» (١)

وذكر من حكم لقمان لابنه قوله: « يابني مايتمّ عقل امرىء حتى يكون فيه عشر خصال » (٢) وذكر من جملة هذه الخصال العشر أنه لايسأم من طلب الفقه طول دهره» (٣) .

من ذلك نستخلص أن طلب العلم والاقبال على مدارسته صورة من صور كمال العقل وتمام الادراك، والعزوف عن ذلك منقصة تقدح في قدر الانسان وتحط من منزلته بين سائر من يعايشهم ويخالطهم، وقد حرص ابن الجوزي أن يجعل من مروياته حافزاً على تملّي أثر العلم في حياة الانسان ودوره في تبوئه المقام اللائق الذي تهفو اليه النفوس .

٢ ــ قيمة العلم وفضيلته ولذة طلبه

لم يجد ابن الجوزي شيئاً من أمور الدنيا يستأثر باهتمامه كطلب العلم والانشغال به انشغالاً اشتملت عليه جوارحه .

يقول: « ليس في الوجود شيء أشرف من العلم، كيف لا وهو الدليل ، فاذا عدم وقع الضلال. وإن من خفي مكايد الشيطان ان يزين في نفس الانسان التعبد ليشغله عن افضل التعبد وهو العلم» (٤)

انه يقدم لنا التبرير الواقعي لهذه الرؤية العميقة للعلم، فانه بمثابة السراج الذي يكشف له ظلمات الطريق ، والدليل الذي يقيه تيه المسيرة وهو في مقولته يضمن إشارة حرية بالتأمل وهي تحذيره من الوقوع في وهدة الجهل والقناعة بالعلم القليل الذي لايبصر الانسان بمواقع قدميه على مدرجه الحياة ، ولا يمنحه القدرة على التمييز بين النافع والضار، كما لايمنحه الرؤية الحصيفة في الاختيار. كما انه يجعل للعبادة بعدها الواقعي الموصول بالحياة، فبدون العلم تكون العبادة

(١) كتاب الأذكياء ١٥

(٢) (٣) كتاب الأذكياء ١٥

(٤) صيد الخاطر ٧٤

عملا آلياً لايحقق ما يتوخى فيها من النتائج ما شرعت من اجله .

ومن اجل ان لا يكون طلب العلم ثقيل الوطأة على النفس يضيق به صدر طالبه أشعر ابن الجوزي كل رواد العلم وطلابه أن في العلم لذة تفوق جميع اللذات الحسية من خلال احساسه هو نفسه .

قال :« فان التذاذي بالعلم وادراك العلوم أولى من جميع اللذات الحسية، فهو الذي علمني وخلق لي ادراكاً وهداني الى ما أدركته » (١) .

ومن خلال هذه الاشارة يقف القارىء على البعد النفسي في طلب العلم، فاللذة من الأمور التي تتطلبها النفس الانسانية .

ومن اجل ان تكون هذه اللذة سامية شريفة وجه النفس الى ان تلتمسها في اشرف مضمار وهو مضمار العلم ، وهو بذلك يقطع السبيل امام النفس ان تطلب لذاتها في الرغبات الهابطة التي تقدح في الانسانية وتصرفها عن مهمات الأمور ، وليس هناك من مهمات في حياة الانسان تعدل أهمية العلم وطلبه والاقبال عليه ، وأذا كان ذلك مقترناً بالشغف والحب واستشعار اللذة الروحية فانما توفرت بكل ذلك عوامل التحفيز والاستمرار واستسهال الصعب وتذليل العسير وتجاوز العقبات .

ويعطي ابن الجوزي المربى لجمهرة المعلمين والقادة المربين اشارة الاهتمام بالبعد النفسي في عملية التربية والتعليم ، وليس الاهتمام بهذا الجانب مما اصطنعه المربون المحدثون بل نجد ذلك واضحاً عند المربين المسلمين .

قال ابن الجوزي في بيان شرف العلم وفضيلته :

«فسبحان من خصص الخصوص بخصائص شرفوا بها على جنسهم، ولا خصيصة اشرف من العلم ، بزيادته صار آدم مسجوداً له . وبنقصانه صارت الملائكة ساجدة » (٢) .

---

(١) صيد الخاطر ٩

(٢) صيد الخاطر ٨٧

وحين يتميز الانسان بهذه الخصيصة فلا مناص له — اذن — أن يسلك الى مصادر العلم سبيله مستسهلا في طلبه كل صعب ، وهو بذلك يحقق في ذات نفسه وفي واقع حاله انسانيته ، فتلك من اللفتات الذكية البارعة التي تحفز الانسان الى طلب العلم لينأى بنفسه عما يقدح بها حين يعزف عن العلم وطلبه .

٣ — الاستزادة من العلم :

نظر ابن الجوزي الى العلم فرأى أن لا حدود له ، وكأنه بحر لا ساحل له ، والعالم عنده من استمر في طلبه دون أن يقنع بما حصل عليه ، ومهما كان محصول طالب العلم منه فانه ليس بكافٍ بل يتطلب المزيد من الدرس والمتابعة.

ولذلك ذكر بأن أفضل الاشياء التزيد من العلم ، فانه من اقتصر على ما يعلمه فظنه كافياً استبد برأيه ، وصار تعظيمه لنفسه مانعاً له من الاستفادة والمذاكرة تبين له خطأه » (١) .

يشير بذلك الى ان التوقف عن طلب العلم يعرض المرء الى ان يعظم نفسه ويستكبر ذاته فيستعلي على الناس بما لديه من العلم ، فتلك مظنه الكبر والعجب ، مما يحمله على ان يقول برأيه وأن يجيب الناس بما لا يعلم ، ثم يفضي الأمر الى ان يمتنع عن المذاكرة والمراجعة التي لم يحط بها علماً فيقع في الخطأ .

ثم يمضي محذراً من مغبة التوقف عن التعلم والاستزادة فيقول : «غير أن اقتصار الرجل على علمه اذا مازجه نوع رؤية للنفس — اي عجب بها — حبس من ادراك المطلوب »(٢)

ولعله يريد من أدراك المطلوب ابتغاء وجه الله تعالى ومثوبته في تعليم الناس ثم ادراك المطلوب في معرفة الناس بمقتضيات ما يدلي اليهم من العلم لاسيما في العلوم الشرعية التي تنبني عليها مسائل التحليل والتحريم .

---

(١) صيد الخاطر ٨٧

(٢) صيد الخاطر ٨٨

٤ ـ بذل الهمة في طلب العلم

حبب العلم وطلبه الى ابن الجوزي صغيراً فشب على ذلك شغفاً محباً ، فحببه هو كذلك الى الناس جميعاً ، وعرض لنا صورة من همته العالية في هذا حتى عد في ذلك مضرب المثل بل موضع الاعجاب .

يقول : «فاني اذكر نفسي ولي همة عالية وانا في المكتب ابن ست سنين قرين الصبيان الكبار ، قد رزقت عقلا وافراً في الصغر يزيد على عقل الشيوخ فما أذكر أني لعبت مع الصبيان قط ولا ضحكت ضحكاً خارجـاً » (١)

«حتى اني كنت ولي سبع سنين أو نحوها أحضر رحبة الجامع فلا أتخير حلقة مشعبة ، بل أطلب المحدث فيتحدث بالسير فأحفظه جميع ما أسمعه وأذهب الى البيت فأكتبه » (٢)

إن ضبط العلوم واستيعاب المعارف لا يتأتيان للمرء من ايسر السبل وإنما يتم ذلك بالحرص البالغ على الاحاطة ، والتأمل الدقيق في ما يدون أو يلقى على الأسماع وتتبعه شوارد المعرفة في مصادرها ومظانها ، دون الاكتفاء بالبلغة اليسيرة ، او العزوف عن الصعب الذي لا يدرك لأول وهلة .

وقد يتطلب ذلك كله جهداً غير طبيعي ، وقد يضحي من اجله بالشيء الكثير من متع النفس والراحة التي طالما يتطلبها الانسان لنفسه ، وقد يقتضي سهراً دائباً .

يقول ابن الجوزي مصوراً لنا همته العالية في طلب العلم :

« ولقد كنت أدور على المشاريخ لسماع الحديث فينقطع نفسي من العدو

---

(١) احسب ان الشيخ يريد انه لم يتخذ اللعب مع الصبيان دأبه الذي يحرص عليه ، وانه لم يضحك ضحكاً يخرجه عن وقاره وادبه .. وقال محققا « لفتة الكبد إلى نصيحة الولد كان رسول الله عليه السلام يفر لعب الصبيان حينما كان يمربهم ويلعبون ويسلم عليهم.

(٢) لفتة الكبد إلى نصيحة الولد ١٢

لئلا أسبق » (١) .

ويبين كذلك أن لبذل الهمة نتائج علمية لايستغنى عنها ولا يفرط بها ، ومن ذلك تشعب معارف الانسان وتعوده على الاستقصاء ، يقول :

«انني رجل حبب الي العلم من زمن الطفولة فتشاغلت به ،ثم لم يحبب الي فن واحد منه بل فنونه، ثم لاتقتصر همتي في فن على بعضه بل أروم استقصاءه والزمان لايسع والعمر أضيق والشوق يقوى والعجز يظهر فيبقى وقوف بعض المطلوبات حسرات » (٢) .

وفي مقارنة له بين علوّ همة السلف وضعف همة الخلف يكشف لنا عن رؤية علمية تربوية متكاملة بعيدة الأغوار يعرضها لنا ليحفز بها الهمم الى اقتفاء منهج علماء السلف في تدوين العلوم في تصانيف جمعت بين العمق والاستيعاب، وضرورة حفظ تراثهم من الاندثار كما فعل بعض خلفهم ممن لم يعرفوا لذلك التراث العظيم قدره ، بل مالوا الى النتف التي لا تغني ولا تسمن ، ولا تحقق الاحاطة بمتطلبات ذلك العلم يقول ابن الجوزي :

«كانت همم القدماء من العلماء علّية تدل عليها تصانيفهم التي هي زبدة أعمارهم ، إلا أن أكثر تصانيفهم دثرت ، لأن همم الطلاب ضعفت فصاروا يطلبون المختصرات ولا ينشطون للمطولات ..... فسبيل طالب الكمال في طلب العلم والاطلاع على الكتب التي قد تخلفت عن المصنفات، فليكثر من المطالعة فأنه يرى من علوم القوم وعلوّ هممهم ما يشحذ خاطره ويحرك عزيمته للجد ، وما يخلو كتاب من فائدة .... واني أخبر عن حالي ما أشبع من مطالعة الكتب ، وأذا رأيت كتاباً لم أره فكأني وقعت على كنز » (٣) .

٤ — اقتران العلم بالعمل

لم يكن اقبال ابن الجوزي على العلم على النحو الذي رأينا لمجرد الزهو بوفرة المعلومات

(١) لفتة الكبد إلى نصيحة الولد ١٣ .
(٢) صيد الخاطر ٢٢
(٣) صيد الخاطر ٣٦٦

والادلال على الاقران بكثرة الحفظ وامتلاك الكتب. بل كان يعد الزهو والعجب من أمراض النفس التي لا يليق بالعلماء أن يتلبسوا بها ، فكان دأبه من الاستزادة أن يقرن ما يناله من جديد العلم وطارف المعرفة بالعمل الواعي المدرك لأبعاد الحياة ، ووضع الطاقات العلمية في خدمة المصالح الانسانية وجعل ذلك من أدوات التقدم والبناء .

ويبين لنا أن الانصراف عن العلم وحصر العمل في ميدان العبادة ضرب من الجهل ، كما بين ان العمل بمقتضيات العمل اي ربط العلم بالحياة من سمات العلماء بل من أبرز وظائف الأنبياء ، ولكي يتسق مع هذا التصور المفهوم القائل بأن العلماء هم ورثة الأنبياء قرن استحقاق العلماء لصفة العلم بالتزامهم منهجاً تنعكس آثاره علمياً في واقع الحياة بصورة ملموسة .

قال : «وكلما جدّ العباد في العبادة وصاح بهم لسان الحال عباداتكم لايتعداكم نفعها ، وانما يتعدى نفع العلماء وهم خلفاء الله في الأرض ، وهم الذين عليهم المعول ولهم الفضل » (١) .

ويصنف ابن الجوزي الناس في مضمار الفضائل مراتب ، وهو لايبخس لأحد فضلا ، إلا أن الصورة المتكاملة في من يعلو أفضل المراتب ذلك الذي يجمع بين العلم والعمل .

قال : «ثم اعلم أن طلب الفضائل نهاية مراد المجتهدين ، ثم الفضائل تتفاوت فمن الناس من يرى الفضائل بل الزهد في الدنيا ، ومنهم من يراها التشاغل بالتعبد ، وعلى الحقيقة فليست الفضائل الكاملة الا الجمع بين العلم والعمل فاذا حصلا رفعاً صاحبهما الى تحقيق معرفة الخالق سبحانه وتعالى ، وحركاه الى محبته وخشيته والشوق اليه ، فتلك الغاية المقصودة » (٢) .

ويمضي ابن الجوزي في بيان الصلة الوثيقة بين العلم والعمل ، وضرورة

---

(١) صيد الخاطر ٢٨

(٢) لفتة الكبد إلى تربية الولد ٩

الالتزا م بمبدأ الموازنة الدقيقة بينهما ، حتى جعل ذلك من علامات النجابة في العالم وسمة المروءة ، وعمق الادراك وكمال العقل .

قال : «ثم تأملت العلماء والمتعلمين فرأيت القليل من المتعلمين من عليه أمارة النجابة طلب العلم للعمل به وجمهورهم يطلب من يصيره شبكة » (١)

وهذا تصوير بارع من الشيخ في بيان حال صنف من العلماء والمتعلمين يجعل من علمه وسيلة الانتفاع غير المشروع ، غير عابىء بعظم الأمانة التي يضطلع بها ، وفي هذه اللفتة ما ينبىء عن عميق اجلاله لنعمة العلم ، ووفاء حق هذه النعمة بالعمل بمقتضاها في تغيير معالم الحياة الانسانية وانارة السبيل أمامها لتأمن العثرات وتبلغ اسمى الغايات .

ومن حرصه على لفت الأنظار الى قيمة اقتران العلم بالعمل انه لم يجعل كثرة العلم عند الرجل مقياس التفاضل ، فرب عالم عرف بغزارة العلم وهو قاعد عن اداء الواجب المقتضى منه ، الى جانب من يمتلك قدراً محموداً منه فيبثه في الناس معلماً او مرشداً او مربياً .

قال في بيان ذلك :

« لقيت مشايخ أحوالهم مختلفة يتفاوتون في مقاديرهم في العلم، وكان أنفعهم لي في صحبته العامل منهم بعلمه،وان كان غيره أعلم منه» (٢) .

ويستلهم في استخلاص هذه الرؤى والنظرات العلمية والتربوية سيرة السلف الصالح من علماء المسلمين الذين كان دأبهم أن يؤدوا أمانة العلم بالعمل بمقتضاه وترسم مضامنيه البناءة الهادفة التي تصلح النفوس وتقيم بناء المجتمعات سليماً قوياً.

لذا فهو يضع أمامنا جملة صالحة من أقو ل السلف لتتخذها الأجيال مثلاً وقدوة في ارتشاف العلم بعزم واخلاص، وتحويل نظرياته ومبادئه إلى واقع أفضل.

« وجاء مالك بن دينار إلى الحسن يتعلم منه ويقول: الحسن استاذنا، واذا

(١) صيد الخاطر ٣٩ .
(٢) صيد الخاطر ١١٣ .

رأى العلماء لهم بالعلم فضلاً صاح الحال بالعلماء: وهل المراد من العلم الا العمل» (١) .

وقالت أم الدرواء لرجل: « هل عملت بما علمت، قال: لا، قالت: فلم تستكثر من حجة الله عليك؟ » (٢)

وقال ابو الدرداء: « ويل لمن لم يعلم ولم يعمل مرة. وويل لمن علم ولم يعمل سبعين مرة » (٣)

ثالثاً : اسس التعليم وآثاره

١ — الجانب العقائدي في التعلم:

جعل الاسلام طلب العلم فريضة من الفرائض الجليلة في حياة الانسان ، لأنه يرشده إلى أصح سبل العبادة، وأفضل صور العمل في مرضاة الله تعالى، ويجنبه المزالق التي يفضي اليها الجهل بحقائق الأمور، ويبين لنا أن العلم يبصر المرء بالأدلة اليقينية التي تصله بخالقه ، فيعرفه حق المعرفة، ويمتثل لأوامره بوعي وادراك عميقين، فلا يتعرض ايمانه للاضطراب، ولا يداخل نفسه الشكوك والوساوس، فيكون من امره على أفضل وجوه الصلاح والخير.

قال ابن الجوزي « واول ماينبغي النظر فيه معرفة الله تعالى بالدليل ، ومعلوم أن من رأى السماء مرفوعة ، والأرض موضوعة وشاهد الأبنية المحكمة خصوصاً في جسد نفسه علم أنه لابد للصنعة من صانع ، وللمبني من بان » (٤)

ولاشك أن هذه الملاحظ ليست لمجرد النظر السطحي بل فيها مافيها من التحفيز الضمني إلى الأخذ بأسباب العلوم الطبيعية التي اشتهر في مضمارها علماء مسلمون أمدوا الميادين العلمية بمنجزاتهم ومبتكراتهم التي عدت من الممهدات الأساسية للتطور العلمي والتكنولوجي.

---

(١) ، (٢) ، (٣)، صيد الخاطر ١٨ .

(٤) لفتة الكبد إلى تربية الولد ٩ .

وكلما خطا العلم أشواطاً موغلة بعيدة للكشف عن كل مجهول كان ذلك أدعى إلى توثيق الايمان بعظمة الخالق وحسن تدبيره وجليل صنعه .

وليأمن المتعلم عثرات الطريق يوجهه إلى علم يعزز به عقيدته ويمده بالرؤية الأيمانية النقية المنزهة من التزيد والانحراف مما يدخل في باب البدع المنهي عنها، لذلك يدعوه إلى القرآن الكريم يقرأه ويتأمله ليحقق بالقراءة والتأمل مايراد من المؤمن أن يحققه في ذات نفسه وفي محيط واقعه خلقاً وسلوكاً ومعاملات.

قال : « ثم يتأمل دليل صدق الرسول — صلى الله عليه وسلم — اليه، وأكبر الدلائل القرآن الذي أعجز الخلق أن يأتوا بسورة من مثله، فاذا ثبت عنده وجود الخالق وصدق الرسول — صلى الله عليه وسلم — وجب تسليم عنانه إلى الشرع ، فمتى لم يفعل دلّ على خلل في اعتقاده، ... فينبغي لذي الهمة أن يترقى إلى الفضائل فيتشاغل بحفظ القرآن وتفسيره، وبحديث الرسول — صلى الله عليه وسلم — وبمعرفة سيره وسير أصحابه والعلماء بعدهم ليتخير مرتبة الأعلى فالأعلى، ولابّد من معرفة مايقيم به لسانه من النحو ومعرفة طرف مستعمل من اللغة، والفقه أصل العلوم، والتذكير حلواؤها وأعمها نفعاً (١) »

ولعلك حين تقف بخاصة عند قوله : «فمتى لم يفعل دل على خلل في اعتقاده عرفت مبلغ عمق رؤيته في صحة العقيدة المستنيرة بالعلم ، ومقدار جدوى ذلك في السلوك والعمل والعبادة .

ويحرص الرجل أن يكون جهده خالصاً لله تعالى ، موضحاً أن من أعظم ثمرات هذا الجهد معرفته لله تعالى وبذل طاقاته العلمية في المضمار النافع الذي يعم خيره الناس .

قال : «ثم ان العلم دلني على معرفة المعبود وحثني على خدمته ،ثم صاحت بي الأدلة عليه إليه ، فوقفت بين يديه فرأيته في نعته وعرفته بصفاته ،وعانيت بصيرتي من ألطافه ما دعاني الى الايمان في محبته، وحركني الى التخلي لخدمته ....

---

(١) لفتة الكبد إلى تربية الولد ١٠

فكلما ملت إلى الانقطاع عن الشواغل الى الخلوة صاح بي العلم: أين تمضي . أتعزف عني وأنا سبب معرفتك ؟» (١) .

وفي مقارنة له بين طلب العلم والانصراف عنه الى العبادة يوضح لنا أن طلب العلم لاينبغي له أن ينفصل عن العبادة بل هو جزء منها ،وقد عرض لهذا الموضوع رداً على من كانوا يعجبهم فعل المنصرفين الى العبادة فحسب ،ويعد ذلك من فعل العوام ، حيث قال :

«ولقد رأينا وسمعنا من العوام أنهم يمدحون الشخص فيقولون :

لاينام الليل ولا يفطر النهار ، ولا يعرف زوجة، ولا يذوق من شهوات الدنيا شيئاً، فقد نحل جسمه ودق عظمه حتى انه يصلي قاعداً فهو خير من العلماء الذين يأكلون ويتمتعون ... ذلك مبلغهم من العلم، ولو علموا ان الدنيا لو اجتمعت في لقمة فتناولها عالم يفتي عن الله،ويخبر بشريعته كانت فتوى واحدة منه يرشد بها الى الله تعالى خيراً وأفضل من عبادة ذلك العابد باقي عمره ،وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : فقيه واحد أشد على إبليس من ألف عابد، ومن سمع هذا الكلام فلا يظنن أنني أمدح من لا يعمل بعلمه ، وانما أمدح العاملين بالعلم » (٢) .

٢ ــ عامل الزمن في عملية التعلم والتعليم :

يضعنا ابن الجوزي أمام معادلة هي من الدقة بحيث تتأثر نتائجها بمقدار الحرص على اقامتها تأثراً بالغاً ، فهو يرى أن الزمن أضيق من أن يتسع أمام المرء ليحيط بالعلوم المتشعبة الممتدة إلى آماد بعيدة ،ولذلك يخرج علينا برؤية تقيم الموازنة الدقيقة في اغتنام الزمن لتحصيل ما ينبغي تحصيله من العلوم النافعة ، والموازنة هذه

---

(١) صيد الخاطر ٢٣ .

(٢) صيد الخاطر ٢٠ .

تقوم على أساس تقديم الأهم من العلوم على مهمها ، لأن الأهم أجدى نفعاً وأشمل فائدة وأعمق أثراً .

ولنستمع اليه وهو يعرض لنا رؤيته في استثمار الزمن وتوظيفه ، يقول : « وانفاق الزمن في تحصيل هذا الفاضل ، وليس يهم مع ترك المهم غلط ، وايثاره على ما هو أنفع وأعلى رتبة كالفقة والحديث غبن ، ولو اتسع العمر لمعرفة الكل كان حسناً ،ولكن العمر قصير فينبغي ايثار الأهم والأفضل » (١) وشخص لولده وهو ينصحه أهمية الزمن واغتنامه في تلقي العلم محذراً اياه من أن يهدر هذا العنصر من حياة الانسان : قال : « واعلم يابني أن الايام تبسط ساعات ، والساعات تبسط أنفاساً ،وكل نفس خزانة ، فاحذر أن يذهب نفس بغير شيء فترى في القيامة خزانة فارغة فتندم ، .... وفي الحديث « من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة » فانظر إلى مضيع الوقت كم يفوته من النخيل » (٢) .

ولا شك أن النخيل التي يعنيها في تعليقه على الحديث الشريف ترمز الى مقدار الفوائد التي يمكن ان يجنيها الانسان في حياته بعدم تفريطه في اغتنام فرص التعلم والانتفاع إضافة إلى أنها تعني الأجر والمثوبة التي هي هدف المؤمن في آخرته، وبين المعنيين صلة وثيقة، بل المعنى الثاني — أي أجر الآخرة — هو ثمرة المعنى الأول أي الانتفاع من الوقت وحسن استثماره فيما يجدي، وما يصحب ذلك من مجانبة لكل مايعود على الانسان من ضرر، أو مايكون مجلبة لغضب الله تعالى. مفوتاً على نفسه مايمكن أن يناله من مثوبة وأجر.

ويعالج ابن الجوزي مشكلة يواجهها كثير من الناس فاتتهم فرص التعلم ، فانكفأوا على وجوههم يائسين ، ولايليق بهم أن يلتمسوا لأنفسهم أسباب التعلم ظناً منهم أن ليس في العمر مايستحق العناء ، فيهون عليهم ابن الجوزي

(١) نقدالعلم والعلماء ١٢٣

(٢) لفتة الكبد إلى تربية الولد .

ذلك الأمر الذي هالهم ويبعث في نفوسهم الأمل والتحفز إلى اللحاق بالركب ، قال :

«.... واندم على مامضى من تفريطك، واجتهد في لحاق الكاملين مادام في الوقت سعة، واسق غصنك، مادامت فيه رطوبة ، واذكر ساعتك التي ضاعت فكفى بها عظة، ذهبت لذة الكسل فيها وفاتت مراتب الفضائل، وقد كان السلف الصالح رحمهم الله يحبون جمع كل فضيلة ويبكون على فوات واحدة منها »(١) .

لقد ساق ابن الجوزي هذه النصيحة إلى ولده أبي القاسم حين رأى منه نوع توانٍ وتباطؤ عن الجد في طلب العلم (٢) .

ثم يحذر أولئك الذين فاتتهم فرص التعلم ولم يحاولوا أن يستدركوا لأنفسهم مافاتها من منافع التعلم فوصف صنعهم ذلك بأنه تخبط أي قلة في العقل وفساد في الرأي وما ينجم عنه من سلوك غير قويم أو هادف.

قال في ذلك: « وكل من فاته التعلم تخبط ، فأن حصل له وفاته العمل به كان أشد تخبيطاً» (٣) .

٣ ــ ازالة مظاهر الجهل والامية :

ان حث الاسلام على طلب العلم أمر أشهر من أن يعرف به ، وحسبه انه جعل طلبه فريضه على كل مسلم ومسلمة ولذلك فقد أعلن ساعة انبثاقه حرباً على الجهل والأمية ، حتى انتشرت حضارته القائمة على اسس من علوم الدين والشريعة مقترنة بالعلوم الطبيعية المتعددة الألوان والمتشعبة المناحي تحقيقاً للموازنة الحضارية التي تجمع بين متطلبات الحياة الدنيا والحياة الأخرى .

« فلقد كان هذا الهدف العام خصيباً ولوداً قادراً على ان يفتق شتى الأهداف ، وكان في صلبه التبصر في شتى ظواهر الكون والاطلاع

---

(١) المصدر نفسه ١٤

(٢) المصدر نفسه ٧

(٣) نقد العلم والعلماء ٢٦٥

على مختلف حقائق الوجود والاحاطة بكـــل علـــم وفن وصناعة (١) »
ورصد ابن الجوزي في مجتمعه كل المظاهر التي يأخذ خطها البياني في الانحدار الحضاري لينبه إلى خطورتها وآثارها السيئة ، ومجانبتها لأهداف الاسلام في اقامة الموازنة الحضارية في العقيدة والعمل والبناء بشكل يتلاحم تلاحماً عضوياً بين هـــذه العناصر ، فرأى أن الانصراف عن العلم تخبيط يدل على فساد التصور وخطل الرأى ومجانبة الحق . كما رأى أن ذلك لون من ألوان تلبيس الشيطان على صنف من الناس يشغلهم عن العلم .

قال : « وكان أصل تلبيسهم عليهم — اي تلبيس الشيطان على الزهاد . انه صدهم عن العلم ، وأراهم أن المقصود العمل ، فلمـــا أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات » (٢) .

وليس من شك أن الظلمات هنا هي ظلمات الجهـــل والأمية وليس حرياً بمجتمع يحكم الاسلام فيـــه النفوس والعقول ويمسك بزمام التربية والتوجيه أن يسوده شيء من ظلمات الجهل والانصراف عن العلم ، فيتردى في وهدة التأخر والتقهقر الحضاري . ومن مقولاته في هذا الصدد مما ينبغي لنا أن نجعله علامة مضيئة في تاريخنا المشرق ما أثر عنه :

« قد سبق القول بأن العلم نور ، وأن ابليس يحسن للانسان إطفاء النور ليتمكن منه من الظلمة ، ولاظلمة كظلمة الجهل » (٣) .

ويقف ابن الجوزي بسداد نظرته أمام طائفة من الناس لم يكن لها حظ وافر من عمق النظرة وواقعية الرأى وسداد البصر بمتطلبات الاسلام في الحياة دأبت على صرف الناس عن العلم وطلبه ، فرأت أن في ذلك هدراً للجهد وتفويتاً للفضل ، وحمل صنيعهم ذلك على أنه من تلبيس ابليس رمز الشر

---

(١) التربية عبر التاريخ ١٤٣
(٢) نقد العلم والعلماء ١٥٨ .
(٣) المصدر نفسة ٣١٥

والهدم والتضليل عن الحق. قال : « اعلم أن اول تلبيس على الناس صدهم عن العلم ، لأن العلم نور ، فاذا أطفأ مصابيحهم خبطهم في الظلم كيف شاء ، وقد دخل على الصوفية في هذا الفن من ابواب : أحدها : أنه منع جمهورهم من العلم أصلا ، وأراهم انه يحتاج إلى تعب وكلف ، فحسن عندهم الراحة ، فلبسوا المراقع وجلسوا على بساط البطالة ..... ومن الصوفية من ذم العلماء ورأى أن الاشتغال بالعلم بطالة .... والثاني : أنه قنع منهم باليسير منه ففاتهم الفضل الكثير في كثرته » (١) .

وفي هذه المقولة ملاحظ يمكن أن نجملها فيما يأتي :

أ ـ أن الجهل هو الانصراف عن تلقي العلم والانقطاع عنه .

ب ـ أن الانصراف عن العلم يورث المرء كسلاً وبطالة ، ففي ذلك تعطيل الطاقات التي تمنح المجتمع حياة وحركة وتقدما .

جـ ـ إن من مفاهيم الجهل الاكتفاء بالقليل اليسير عن الكثير الوافر .

ومما يدخل في هذا الباب أن يتدارك أهل العلم مايشيع في اوساط الناس من اخطاء علمية ، فيندبوا أنفسهم إلى معالجة هذه الظاهرة، وقد نبه ابن الجوزي إلى ضرورة اضطلاع أهل العلم بتصحيح الأخطاء وتقويم المعوج وبيان وجوه الصواب ليستقيم أمره على المحجة الواضحة الصحيحة،وندب ابن الجوزى نفسه إلى معالجة هذه الظاهرة ، فقال :

« وبعد فأني رأيت كثيراً من المنتسبين إلى العلم يتكلمون بكلام العوام المرذول ، جريا منهم على العادة ، وبعدا عن علم العربية ، ورأيت بيان الصواب في كلامهم مبدداً في كتب أهل اللغة ، وجمعه يثقل عنه المتكاسل عن طلب العلم ، فقد أفرد قوم مايلحن فيه العوام ، فمنهم من قصر ومنهم من رد ما لايصلح رده . فرأيت ان انتخب من صالح ذلك ماتعم به البلوى دون مايشذ استعماله ويندر ، وأرفض من الغلط مالايكاد يخفى » (٢)

---

(١) المصدر نفسه ٣٠٩ ـ ٣١٠ .

(٢) تقويم اللسان ٧٣ ـ ٧٤ .

ذلك ملحظ كبير يوجه ابن الجوزي أنظار الدارسين اليه . فقد عد الخطأ في الكلام ، والاستهانة بضبط قواعده وأصوله ضرباً من الجهل، فلا ينبغي لأحد أن يستهين بصحة التراكيب التي تبنى عليها صحة مدلولاتها ، وهو بذلك يوسع مفهوم الأمية ولايقصرها على الجهل بالقراءة والكتابة ، فالضبط هو الشرط الاساسي للتعلم ، لاينبغي لأحد ان يفرط به .

٤ – العلم وأثره في السلوك الانساني :

ينبني كثير من سلوك الانسان على تصورات ومفاهيم معينة ، فالجهل يفضي في اغلب الأحيان إلى ان يسلك الانسان من السبل مايودي به إلى الخسران والهلاك أو أن يتخذ من المواقف مالايحسب حساباً لنتائجها ومآتيها ، فيكون الندم او الخذلان نصيبه .

ومن هنا كان العلم هو الوسيلة الفضلى للتمييز ، وسبيلا إلى الاختيار الأفضل ، لأنه يمنح الانسان رؤية تمتد إلى أبعد القضايا مرتبطة بالزمن الحاضر مستجلية آفاق المستقبل الآتي ، فعندئذ يكون اتخاذ القرار او الالتزام بموقف معين متأتيا عن بعد نظر وحصافة فكر وإصابة اجتهاد ونزوع إلى تبين وجوه الحق والصواب . وتلك ثمرات جليلة للعلم والمعرفة .

ومن تجارب الشيخ ابن الجوزي ان العلم قد صانه مما وقع فيه غيره من أوهام ، وما اصطلح عليهم من ضلالات ، وما حبب اليه من اشياء بدت له في معايير العلم خاطئة .

يحدثنا عن ذلك فيقول : « بكرت يوماً اطلب الخلوة إلى جامع الرصافة، فجعلت أجول وحدي واتفكر في ذلك المكان ومن كان به من العلماء والصالحين ، ورأيت اقواماً قد جاوروا فيه ، فسألت أحدهم : منذ كم أنت ها هنا ؟ فأومأ إلي : قريب من أربعين سنة . فرأيته في بيت كثير الدرن والوسخ ، وجعلت اتفكر في حبسه لنفسه عن النكاح هذه المدة ، فأخذت النفس تحسن ذلك وتذم الدنيا والاغترار بها ، فأقبل العلم ينكر على النفس، ونهض الفهم لحقائق

الأمور ، وموضوع الشرع يقوي ماقال العلم .... فان رسول الله صلى عليه وسلم — ونهى أن يبيت الرجل وحده ، وهؤلاء كل منهم يبيت وحده، ونهى عن التبتل ، وهذا تبتل » (١) .

ويبين لنا ابن الجوزي كيف أن العلم يصحح المفاهيم ويقوم السلوك الانساني، ولاسيما في مضمار التعبد ، ويحذر اولئك الذين استهوتهم أعمال إنما هي في مقياس الشريعة بدع وضلالات .

يقول : « ثم لاتنافي بين العلم والرياضة ، بل العلم يعلم كيفية الرياضة ويعين على تصحيحها ، وانما تلاعب الشيطان بأقوام أبعدوا العلم وأقبلوا على الرياضة بما ينهى عنه العلم ، والعلم بعيد عنهم ، فتارة يقطعون الفضل المنهي عنه وتارة يؤثرون ماغيره أولى منه » (٢) .

ويؤكد لنا أن العلم لاينال لذاته ، بل يكاد يفصح أن العلم للحياة ، ولابد ان يجتهد العالم او طالب العلم ان يتمثل آثار العلم في واقع الحياة سلوكاً قويماً ومفاهيم صحيحة ومعاملات سديدة وعلاقات سليمة وثيقة .

والى ذلك يشير بقوله : « وليس العلم بمجرد صورته هو النافع بل معناه ، وانما ينال معناه من تعلمه للعمل به ، فكلما دله على فضل اجتهد في نيله ، وكلما زاد نهاه عن نقص بالغ في مساعدته ، فحينئذ يكشف العلم له سره ، ويسهل عليه طريقه » (٣) .

ويعرض لنا من واقعه الذي عايشه صوراً لنماذج من هؤلاء الذين لم يؤثر العلم فيهم ، بل كانوا صوراً مشوهة ممسوخة لحملة العلم ، ذلك انهم لم يوازنوا في واقع الحياة بين العلم ومتطلباته العملية .

قال : « ورأيت شيخاً آخر حصل صور علم فما أفادته ، كان أي فسق أمكنه لم يتحاش منه ، وأي أمر لم يعجبه من القدر عارضه بالاعتراض على

---

(١) صيد الخاطر ١٠٢ — ١٠٣

(٢) صيد الخاطر ٣١٣ .

(٣) صيد الخاطر ١٢٥

المقدر ، فعاش اكدر عيش وعلى أقبح اعتقاد حتى درج ، وهؤلاء لم يفهموا معنى العلم ، وليس العلم صور الألفاظ انما المقصود فهم المراد » (١) .

وحين يؤكد الآثار الجليلة للعلم في حياة الناس يعرض لنا استكمالا للصورة مايتركه الجهل من آثار سلبية في حياتهم ، وما يتسم به سلوكهم من أخطاء وانحرافات تحتل ازاءها موازنة الحياة الانسانية، وتضمر الممارسات السليمة التي تكون عاملا فعالا من عوامل تقدم المجتمع الانساني .

قال ابن الجوزي : « فأما الجهال فانقسموا ، فمنهم سلطان قد ربي في الجهل ولبس الحرير وشرب الخمر وظلم الناس ، وله عمال على مثل حاله، فهؤلاء بمعزل عن الخير بالجملة ، ومنهم تجار همتهم الاكتساب وجمع الأموال، واكثرهم لايؤدي الزكاة ولايتحاشى من الربا ، فهؤلاء في صور الناس ، ومنهم أرباب معاش يطففون المكيال ويخسرون الميزان ويبخسون الناس ويتعاملون بالربا ..... ومنهم من يطلب اللذات ولايساعده المعاش فيخرج إلى قطع الطريق وهؤلاء أحمق الجماعة ...» (٢) .

رابعا : طرائق التعلم والتعليم

١ — الصبر على طلب العلم

ان طلب العلم ليس ترفاً يزجى به وقت الفراغ ، وانما هو رحلة الحياة الطويلة الشاقة ،ولعل لذة هذه الرحلة فيما يحف طريقها من المشاق والمصاعب ، ويحفز ابن الجوزي برؤية المربي الحصيف أجيال المعرفة وطلاب العلم ان يتحملوا المشاق في سبيل الاحاطة بمتطلبات الدرس والتحصيل والصبر على ماتكابده النفس من عنت وصعاب، وقد تلمس ابن الجوزي خطوط هذه الصورة من سيرة رجال تحملوا الأعباء الشاقة ، وضحوا بملاذ الحياة وخفض العيش طلباً لفضيلة العلم والمعرفة .

---

(١) صيد الخاطر ٣٦٤

(٢) صيد الخاطر ٢٨١ — ٢٨٢ .

قال : «رأيت جماعة ممن أفنى أوائل عمره وريعان شبابه في طلب العلم يصبر على أنواع الأذى، وهجر فنون الراحات أنفة من الجهل ورذيلته ، وطلباً للعلم وفضيلته » (١) .

ومما نصح به الامام ابن الجوزي ولده أن يلتزم العزلة، وأحسب أن العزلة التي يعنيها ابن الجوزي ليس الا اغتنام الفرصة في مرحلة التعلم والسعي لتحصيل المعارف دون التهوين من شأن الوقت في لهو أو عبث ، والا فان العزلة التامة التي هي دأب الزهاد ليست مما يخطر على بال الشيخ المربي ومنهجه الواقعي في أن يكون للانسان دور فاعل في كل مضمار من مضامير الحياة ، ومصداق ماذهبنا اليه أنه قرن نصيحة ولده بالتحذير من جلساء السوء .قال: «وعليك بالعزلة فهي أصل كل خير ، واحذر من جليس السوء ، وليكن جلساؤك الكتب والنظر في سيرة السلف ، ولا تشتغل بعلم حتى تحكم ماقبله، وتلمح سيرة الكاملين في العلم والعمل ، ولا تقنع بالدون » (٢) .

ويبين لنا مالقيه من الشدائد في مرحلة طلب العلم ليجعل من نفسه قدوة للدارسين والعازفين عن الدرس على حد سواء فيزداد الدارس عزماً وقوة على مشاقه ، وتتحفز نفوس المتخاذلين الى تدارك مافات دون أن تقف المصاعب عقبة في طريقهم .

قال : « ولقد كنت في حلاوة طلبي العلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل لأجل ماأطلب وأرجو ، كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديث .... وأقعد على نهر عيسى فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء ، فكلما أكلت لقمة شربت عليها ، وعين همتي لا ترى الا لذة تحصيل العلم » (٣) .

ويصور لنا حبه الشديد للعلم متخذاً من البعد النفسي محكاً لصبر الدارسين على المكاره والمصاعب ، وذلك في قوله :

---

(١) صيد الخاطر ١٣٢

(٢) لفتة الكبد إلى تربية الولد ١٧

(٣) صيد الخاطر ١٩١

«مايتناهى في طلب العلم الا عاشق العلم ، والعاشق ينبغي أن يصبر على المكاره » (١) .

٢ — وسائل حفظ العلم :

في جملة ماعرض لنا من خلال حديثه المستفيض عن العلم وطلبه ، والحث على ارتياد مناهله يشخص لنا الوسائل التربوية السليمة التي يمكن ان تعين الدارس على حفظ العلم والاحاطة بمضامين الكتب والمصادر العلمية ، وبوسعنا ان نوجز هذه النظرات التربوية المحددة لتلك الوسائل :

أ — تجنب الارهاق في الدراسة : قال ابن الجوزي : «ومن الخطأ الانهماك على الاعادة ليلاً ونهاراً ، فانه لايلبث صاحب هذه الحال الا أياماً ثم يفتر أو يمرض ..... فليأخذ الانسان على قدر قوته ودونها ، فانه اذا استنفذها في وقت ضاعت منه أوقات .... ، والصواب أن يأخذ قدر مايطيق ، ويعيد في وقتين من النهار أو الليل ويرفه القوى في بقية الزمان ، والدوام أصل عظيم»(٢) .

ب — تجنب الاسترخاء والإبطاء في الدراسة :

قال ابن الجوزي : «فكم ممن ترك بعد الحفظ فضاع زمن طويل في استرجاع محفوظ قد نسي » (٣) .

جـ — تخير الأماكن والأوقات المناسبة للدراسة ، والترفيه عن النفس :

قال : «وللحفظ اوقات من العمر ، فأفضلها الصباح وما يقاربه من اوقات الزمان ، وأفضلها اعادة الأسحار وأنصاف النهار ، والغدوات خير من العشيات ، وأوقات الجوع خير من أوقات الشبع ، ولا يحمد الحفظ بحضرة خضرة وعلى شاطئ نهر ، لان ذلك يلهي ، والأماكن العالية للحفظ خير من السوافل .... وترفيه النفس من الاعادة يوماً في الاسبوع ليثبت المحفوظ وتأخذ النفس

---

(١) صيد الخاطر ٣٦٨

(٢) صيد الخاطر ١٤٢

(٣) صيد الخاطر ١٤٢

قوة كالبنيان » (١) .

د — عدم الانتقال إلى درس جديد قبل حفظ مايسبقه .

قال : «وأن لايشرع في فن حتى يحكم ماقبله » (٢) .

هـ — ترك الحفظ في وقت الفترر والخمول .

قال : «ومن لم يجد نشاطاً للحفظ فليتركه ، فان مكابرة النفس لاتصلح ، واصلاح المزاج من الأصول العظيمة » (٣).

و — تقديم الأهم من العلوم .

قال : «ثم لينظر مايحفظ من العلم فان العمر عزيز والعلم غزير ، وإن اقواماً يصرفون الزمان إلى حفظ ماغيره أولى منه ، وإن كان كل العلوم حسناً ، ولكن الأولى تقديم الأهم والأفضل » (٤) .

ز — أن يقصد وجه الله تعالى في طلب العلم .

قال : «ومن قصد وجه الله تعالى بالعلم دله المقصود على الأحسن «واتقوا الله ويعلمكم الله » (٥) .

٣ — التأليف والمشافهة : :

ترك لنا سلفنا الصالح ثمرات قرائحهم ونتاج عقولهم مصنفات وكتباً لايحدها حصر ، هي من أنفس ماتركه لنا ، ولقد كان علماؤنا يحرصون على أن يقيدوا علومهم في مصنفات وكتب ، مع قلة الوسائل وضآلة الأدوات ، ولكن اخلاصهم لأمانة العلم واحساسهم الكبير بجسامة هذه الأمانة كان يحفزهم إلى مواصلة الليل والنهار في الانكباب على الاستنساخ خشية أن تذهب هذه العلوم مع ذهاب أهلها ورجالها .

لذلك كان ابن الجوزي يوصي أن تصنف الكتب صيانة للعلم وإعماماً لفائدتها إلى اقصى مدى وأبعد حد .

---

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) ، (٥) صيد الخاطر ١٤٣

قال : «رأيت من الرأي القديم أن نفع التصانيف اكثر من نفع التعليم بالمشافهة ، لأني أشافه في عمري عدداً من المتعلمين ، وأشافه بتصنيفي خلقاً لاتحصى ماخلقوا بعد » (١)

ومن المناسب أن نذكر أن تدوين العلوم أصل من أصول الاسلام أوصى به النبي — صلى الله عليه وسلم — حيث قال :

«اذا مات الانسان انقطع عمله الا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية او علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » (٢)

وفي هذا التوجيه مايعكس عن رؤية عملية لاتنحصر في حدود الواقع الذي يعيشه ، بل تمتد إلى آفاق زمانية ومكانية تتناهى تناهي المستقبل الانساني نفسه .

ولولا تمكن هذه الرؤية من عقول علماء السلف لانقطعت الأواصر بيننا وبين العلوم التي دونوها ، ولعشنا على فتات الأمم الاخرى .

ومن أجل بيان أهمية كتابة العلم يورد لنا أن الصحابة كانوا يكتبون احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه ، فان ذلك أدعى لرفع الخلاف ورأب الصـــدع .

قال ابن الجوزي : «واعلم أن الصحابة ضبطت ألفاظ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وحركاته وأفعاله ، واجتمعت الشريعة من رواية هذا ورواية هذا ، وقد قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بلغوا عني ، وقال : نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها ، وتأدية الحديث كما يسمع لايكاد يحصل الا من الكتابة » (٣)

ومن أجل ذلك شدد النكير على قوم عمدوا إلى دفن كتبهم ، بعد أن أنفقوا في تدوينها وجمعها عمراً وجهداً ، وانصرفوا إلى العبادة ، وكأنهم جهلوا أن العناية بالكتب وهي وعاء العلوم لون من ألوان العبادة اذا ابتغى

---

(١) صيدالخاطر ١٨٥

(٢) صحيح مسلم — ج٣ — الحديث ١٤ وصية ص ١٢٥ .

(٣) نقد العلم والعلماء ٣١٦ .

بها وجه الله تعالى .

قال : «قد كان جماعة منهم تشاغلوا بكتابة العلم ، ثم لبس عليهم ابليس وقال : ماالمقصود إلا العلم ودفنوا كتبهم » (١) .

ثم تحدث عن رجال يعرفهم بحسن فهمهم وصبرهم على الحديث، ثم رموا بجملة سماعاتهم القديمة في دجلة . (٢)

٤ ــ الضبط والدقة في التعلم والبحث :

لم يفض ابن الجوزي في بيان تفاصيل مايتطلبه التعلم والبحث من الضبط والدقة ، إلا أنه أورد لنا طرفة من مرويات الأصمعي تكشف لنا عن جانب مهم من طرائق التربية والتعليم متمثل في تعويد الطلبة على الأمانة العلمية وتوخي الدقة والضبط في التعلم ، وحمل ابن الجوزي ذلك على محمل كمال العقل وبعد النظر .

قال : الأصمعي : «بينا أنا في بعض البوادي اذا أنا بصبي، او قال صبية، معه قربة غلبته فيها ماء ، وهو ينادي : ياأبت أدرك فاها ، غلبني فوها، لاطاقة لي بفيها ، قال : فوالله لقد جمع العربية في ثلاث » (٣) .

وحين نضع هذه الطرفة أمام دارسينا فانما نشير الى ضرورة ضبطهم للغة ضبطاً يحمل مدلولات الحرص على صيانة اللغة وسلامتها على افضل وجوهها ، ومن خلال هذا الحرص تحقق الامة معلماً من معالم شخصيتها بل ابرز عنصر من عناصر وجودها وهو اللغة .

ومن خلال ذلك ايضاً يعتاد الانسان أن يضع الدقة العلمية في حسبانه عند التعامل مع مختلف صنوف المعرفة ، وفي ذلك تحفيز لدارسينا على احترام اللغة بوصفها وعاء للأفكار والمفاهيم وعدم الاستهانة بما يجترحون من اخطاء نحوية أو صرفية او لغوية او اسلوبية او علمية .

(١ ، ٢) المصدر نفسه ٣١٤

(٣) كتاب الأذكياء ٢٠١

٥ ـ المناظرة :

لم يكن من دأب علماء المسلمين ان يحتكروا العلم لأنفسهم ، او أن يكون ماتعلموه هو الصواب الذي لايحتمل الخطأ ، بل كان من ابرز سماتهم أن يتحروا الحق والصواب ، وما كان ليثني أحدهم شيء من أن يصرح بعجزه عن الاجابة عن مسألة ، أو ان ينتفع من غيره ليزداد هدى وبصيرة ، فكانوا يأخذون الحكمة من اي وعاء خرجت .

ولقد كانت مجالس المناظرات بينهم حافلة بتبادل الآراء وتقليبها على وجوهها ابتغاء التوصل إلى الرأي الأسد الأرجح مدعوماً بالأدلة العقلية والنقلية الواضحة ، من غير أن يكون التناظر سبيلا إلى العجب والمباهاة والاستكبار ، ثم انهم كانوا لاينظرون باحترام إلى من يدخل حومة المناظرة من غير أن يكون له قدر وافر من العلم يتيح له المصاولة والقراع ، وإلى هذا الصنف يشير ابن الجوزي بقوله : « ومن ذلك انهم اقتصروا على المناظرة وأعرضوا عن حفظ المذهب ، وباقي علوم الشرع ، فترى الفقيه المفتي يسأل عن آية او حديث فلا يدري ، وهذا غبن فأين الأنفة من التقصير »(١) .

ثم يمضي ليبين لنا أهداف المناظرة ومقاصد الجدل فيقول : « ومن ذلك أن المجادلة إنما وضعت ليستبين الصواب ، وقد كان مقصود السلف المناصحة باظهار الحق » (٢) .

ويضعنا امام منهج سليم في النقاش والمناظرة ، وذلك بالتماس الدليل تلو الدليل على مايلقى على بساط البحث ، قال في بيان ذلك : «وقد كانوا ينتقلون من دليل إلى دليل ، واذا خفي على أحدهم شيء نبهه الآخر ، لأن المقصود كان إظهار الحق » (٣) .

وينعى ابن الجوزي على اولئك الذين يحيدون عن محجة هذا المنهج السديد فلا يذعنون لما يبديه الخصم من رأي يبين سداده ويتضح الحق فيه .

قال ابن الجوزي : « ومن ذلك أن أحدهم يتبين له الصواب مع خصمه ولايرجع ، ويضيق صدره كيف ظهر الحق مع خصمه ، وربما اجتهد في

(١) ، (٢) ، (٣) نقد العلم والعلماء ١١٦

رده مع علمه أنه الحق ، وهذا من أقبح القبيح ، لأن المناظرة انما وضعت لبيان الحق » (١) .

٦ ــ علاقة التلميذ بأستاذه :

ليست العلاقة بين التلميذ وأستاذه ومرشده من العلاقات العابرة أو الضيقة التي تنحصر في دائرة العمل الوظيفي ، ، بل هي صلة أبوية روحية يفيض فيها الاستاذ من سماحة نفسه ووفرة علمه على تلميذه ، فتتأصل في اعماق النفوس وشائج الود والاكبار ، ومن هنا فإن من مستلزمات الحرص على استقامة التلميذ أن يلتمس له انجع الوسائل وأجداها اذا احس منه جنفاً في طبعه أو مايشي بانحراف سلوكه ، او مخالفة للتعاليم التربوية الهادفة ، فالعقوبة هنا تتفاوت من استاذ استاذ لآخر ، وحسب مقتضيات الذنب الذي اجترحه التلميذ ، شريطة أن تكون العقوبة محققة أهدافها في تقويم المعوج ورد الجانح إلى محجة الصواب ، ولابد للتلميذ أن يتقبل ذلك تقبل المريض لمر الدواء .

ويضع ابن الجوزى امام ابنائنا الطلبة انموذجاً لتلميذ أوقع عليه مرشده لوناً من العقوبة آذاه بعض الأذى ، ولكنه كان عند حسن ظن استاذه به مع قدرة التلميذ ان يكيد لأستاذه ولكن لم يفعل ، فالتربية القويمة قد سدت عليه منافذ التجاوز في حق استاذه ، فروى لنا أن ابا محمد الترمذي مؤدب المأمون اضطر إلى تأديبه ببعض العقاب مما أبكى المأمون ، وفي تلك الأثناء حضر جعفر بن يحيي البرمكي ، فخشي الترمذي ان يشكوه المأمون إلى جعفر ، ولكن المأمون سرعان مابادر إلى مسح دموعه فاستقبل جعفراً بوجه ضاحك منشرح .

قال الترمذي للمأمون : « ايها الأمير اطال الله بقاءك ــ لقد خفت ان تشكوني إلى جعفر بن يحيي ، ولو فعلت ذلك لتنكر لي ، فقال: تراني يابا

(١) نقد العلم والعلماء ١١٧ .

محمد كنت أطلع الرشيد على هذا ، فكيف بجعفر بن يحيى حتى اطلعه ، اني احتاج إلى ادب ، اذن يغفر الله لك بعد ظنك ووجيب قلبك ، خذ في امرك ، فقد خطر ببالك مالاتراه أبداً ،لو عدت في كل يوم مئة مرة »(١).

ومما يستخلص من هذه الطرفة معان تربوية نجملها فيما يأتي :

أ — حسن الصلة بين التلميذ واستاذه ليضمن استمرار العملية التربوية التعليمية على افضل وجوهها .

ب — مظاهرة الأستاذ بالاكبار والتبجيل والاعتراف بجميله مما يحفز الأستاذ على حب طلبته وبذل أقصى جهوده في سبيل أن يمدهم بعلمه وتوجيهه ووافر خبرته ، وأن يكون قريباً إلى نفوسهم ، معهم في سرائهم وضرائهم

جـ — أن يلتمس الأستاذ من وسائل التأديب مايحقق به افضل النتائج ، والا يوغل في العقوبة التي تفضي إلى غير مايتوخى منها ، وأن يتقبل الطالب ذلك بحب واكبار وحسن ظن .

٦ — مسؤولية الآباء وأولياء الامور :

ان الاولاد هم الأمانة الثقيلة في اعناق الآباء ، ومن واجبات الأبوة أن يأخذوا بأيدي أبنائهم ومن يعولونهم إلى مصادر العلم وتهيئة اسباب تلقيه ، سواء أكانت مادية أمْ معنوية .

وينصب ابن الجوزي من نفسه مثلاً كريماً من امثلة اداء الواجب الأبوي ازاء الأبناء ، ولقد رأى ببصيرة المربي الحصيف ونظرة الأب الحريص على ولده ، أن ابنه أبا القاسم فاتر الهمة في طلب العلم ،فماذا قال ابن الجوزي في ذلك وما صنع ازاء هذا التقصير ؟

قال : فلم يبق من الذكور سوى ولدي أبي القاسم ،فسألت الله تعالى ان يجعل فيه الخلق الصالح ، وأن يبلغ به المنى والمناجح ، ثم رأيت منه نوع توانٍ عن الجد في طلب العلم، فكتبت له هذه الرسالة أحثه بها على سلوك

(١) كتاب الاذكياء ٢٠٠

طريقي في كسب العلم ، وأدله على الاتجاه إلى الموفق سبحانه وتعالى » (١) .

سلك ابن الجوزي في مواجهة المشكلة سبيل التريث لالتماس أفضل سبل الترجيه ، فكان النصح والارشاد هو سبيله ، بدلا من أن يشتد على ابنه بقارص الكلام وإرغامه على مايكره ، فأخذ بناصيته برفق وحنان حتى كان له ماأراد.

وبهذا يقدم للآباء المثل الأعلى في التوجيه التربوي ومعالجة مايعرض سبيلهم من المشكلات بتؤدة وحكمة وسداد رأي .

ثم إن هذا الحرص من الأب على صلاح ولده يعكس لنا المسؤولية التي ينبغي للآباء ألا يفرطوا بها ، فان توجيه الأبناء إلى معاهد العلم يحمل اكثر من مدلول سليم ، فان ترك الاولاد في متاهة الحياة يعني خلق مجرمين منحرفين يعودون وبالاً على أنفسهم وأسرهم ومجتمعهم ، فالعلم هو السبيل الأمثل لاصلاح النفوس وردها عن الغواية والانحراف .

وبعد فانه من خلال ماعرضنا من خطوط عامة استللناها من كتب ابن الجوزي نأمل ان نكون قد وفقنا في رسم معالم شخصية تمتلك من الرؤي التربوية والتعليمية ماهو جدير بالاهتمام والتمثل والاقتداء ، وبالله التوفيق.

---

(١) لفتة الكبد إلى نصيحة الولد ٧ .

مصادر البحث

١ — كتب ابن الجوزي

١ — تقويم اللسان : تحقيق وتقديم الدكتور عبد العزيز مطر — دار المعرفة — القاهرة . الطبعة ١ ، سنة ١٩٦٦

٢ — صيد الخاطر : طبعة محمد الخانجي — الطبعة ١ ، سنة ١٩٢٧

٣ — كتاب الأذكياء : ذخائر التراث العربي — المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر — بيروت .

٤ — لفتة الكبد إلى نصيحة الولد — تقديم وتعليق الاستاذين محمد ناصر الدين الألباني ومحمود مهدي الاستانبولي — مطبعة الترقي بدمشق ١٣٧٤هـ — ١٩٥٥م

٥ — نقد العلم والعلماء أو تلبيس ابليس — نشرة الطباعة المنيرية بمصر

٢ — المصادر العامة

١ — البداية والنهاية — ابن كثير . ج١٣ — مطبعة السعادة في مصر .

٢ — تذكرة الحفاظ — الحافظ الذهبي . مجلد٢ . ج٤ — دار احياء التراث العربي — بيروت .

٣ — التربية عبر التاريخ — د . عبد الله عبد الدائم — دار العلم للملايين — ط٢ ، ١٩٧٥ .

٤ — الجامع المختصر في عنوان التاريخ وعيون السفر — ابن الساعي — ج٣ — عنى بنشره والتعليق عليه مصطفى جواد — طبعة المطبعة السريانية الكاثوليكية — بغداد ١٩٣٤م .

٥ — شذرات الذهب في اخبار من ذهب — العماد الحنبلي — مجلد٢. ج٤ المكتب التجاري للطباعة — بيروت — ذخائر التراث العربي .

٦ ــ صحيح مسلم ــ دار احياء التراث العربي ــ بيروت .

٧ ــ العبر في خبر من غبر ــ الحافظ الذهبي ، مجلد ١٠ ، ج٤ ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ــ سلسلة التراث العربي ــ وزارة الارشاد والأنباء في الكويت ــ ١٩٦٣ .

٨ ــ كتاب دول الاسلام ــ الحافظ الذهبي ــ ط٢ ، طبعة حيدر آباد ــ ١٣٦٤ هـ .

٩ ــ مرآة الجنان وعبرة اليقظان ــ ابو محمد عبد الله بن اسعد اليافعي ط١ ــ طبعة حيدر آباد ١٣٣٨ هـ .

١٠ ــ مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ــ سبط ابن الجوزي ط١ ــ طبعة حيدر آباد ١٩٥١ .

١١ ــ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ــ ابن تغري بردي . ج٦ ــ سلسلة تراثنا ــ طبعة دار الكتب بمصر .

١٢ ــ وفيات الأعيان ــ ابن خلكان ــ ج٣ ــ تحقيق الدكتور احسان عباس ــ طبعة دار صادر ــ بيروت .